سيرة الحبشة

تأليف

الحيمى الحسن بن أحمد

بتحقيق

الدكتور مراد كامل

طبعة ثانية منقحة

مقدمة

بقلم المحقق

---

١ — أهمية هذا النص

تربط بلاد اليمن بالحبشة منذ أقدم العصور التاريخية صلات متينة قوية . وقد سبب الوضع الجغرافى للبلدين اختلاط سكانهما اختلاطاً يتفاوت قوة وضعفاً بتفاوت العوامل والظروف . فإن هجرة سكان اليمن وحضرموت إلى الحبشة لم تنقطع فى العصور المختلفة ، بل لاتزال قائمة إلى اليوم . وإن صلات الدين والسياسة والاقتصاد بين البلدين قبل الإسلام ذكرتها بعض الكتب التى بأيدينا . ولاتزال النقوش التى يكشف عنها فى البلدين تضيف أدلة جديدة عن هذه الصلات .

* * *

وكان دخول الإسلام أرض الحبشة وانتشاره هناك من أسباب تلك الصلات ، ولم تحدثنا الكتب العربية عن علاقة هذين القطرين إلا فى اختصار شديد . ولذلك فإن جهلنا بتاريخ تلك الصلات يجعلنا فى شدة اللهف على تصيد أخبارها من بين سطور الكتب العربية . وقد يندر أن تقع لنا الكتب أو الرسائل التى انفردت بتدوين علاقة اليمن بالحبشة . ولكن قد حفظ لنا رجل فاضل من سلالة ، الحيمى ، رسالة عن وصف مرحلة قصيرة من مراحل الصلات بين الحبشة واليمن فى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى ، وهذه الرسالة تقدم لنا مثالا عن اتزان العقل والأمانة العلمية عند أحد كتاب العرب ، الذى بالرغم من الظروف الدينية التى كانت هى السبب فى قيامه بهمته فى الحبشة ، والتى كانت تحتم عليه أن يرى الأشياء من زاوية خاصة ، فقد أمكنه أن يتحلل من كل هذا ويرى المسائل مجردة من كل تعصب أو تحيز ، فيصف لنا مشاهداته فى الحبشة وصفاً علمياً صحيحاً لاتشوبه شائبة ، بعقلية قاض عادل نزيه

وعالم مدقق خبير . وقد حمله نظره المجرد إلى الأشياء أن يصل إلى استنتاجات قوية تدل على تحقيق ومعرفة بالأمور . وإن ما وصل إليه من فهم نفسية شعوب الحبشة وأخلاقها مدة إقامته القصيرة بينهم يعتبر دليلا على حسن فهمه للأمور وثاقب نظره إلى كنه الأشياء . وإن خاصية الأحباش المحافظة جعلتنا نتحقق اليوم من النتائج التى وصل إليها « الحيمى » كاتب هذه الرحلة منذ أكثر من ثلاثة قرون .

ومن الغريب أن المصادر الحبشية لم تذكر لنا شيئاً عن هذه الرحلة ، فقد نشر « بروشون » فى المجلة السامية (سنة ١٨٩٨ الجزء الأول) تاريخ « فاسيلادس » بالحبشية ، ولم يرد فيه أى ذكر لهذه الرحلة التى دعى إليها الإمبراطور « فاسيلادس » نفسه وتمت فى أيامه .

٢ — تعريف بالمخطوطة

قام الدكتور « خليل يحيى نامى » على رأس بعثة مصرية سنة ١٩٥٢ لتصوير مخطوطات باليمن .

وقد طلبتُ إليه أن يبحث عن مخطوطة كاملة عن رحلة « الحيمى » إلى الحبشة ، ووفق الدكتور « نامى » إلى العثور على نسخة منها بمكتبة القاضى « لطف محمد الحيمى » ، وهو من سلالة المؤلف ، وصوّرها فله منا وافر الشكر .

والمخطوطة تقع فى اثنتين وأربعين ورقة ، مقاسها ٢٢ × ١٦ سنتيمتر وتاريخها سنة ١٠٨٣ هـ .

وتعتبر هذه المخطوطة الوحيدة الكاملة التى عثر عليها إلى الآن . وهناك مخطوطة ثانية فى مكتبة « ليدن » بأولها خرم ؛ ولذلك فضلنا أن ننشر هذه المخطوطة ونراجعها على مخطوطة « ليدن » التى نشير إليها فى الهامش بحرف (ل) .

ومخطوطة اليمن مكتوبة بإملاء به بعض الاختلاف عن الإملاء المعروف لنا ، وذلك من تأثير اللهجة اليمنية :

ففيها الخلط بين الظاء والضاد ، مثل كتابة : ضـــلالة . وانضم . والضيافة . ومنخفضة . ونضارتها ، بالظاء بدلا من الضاد ، وكذلك : استظموه ، والوظيفة ، والمظفر ، بالضاد .

وقد تكتب الكلمة بالظاء مرة وبالضاد أخرى فى نفس الصفحة ، مثل : الضيافة ، والظيافة .

— كتابة التاء المربوطة تاء مفتوحة أحياناً ، وذلك فى مثل : وفاة ، وغاية ، والعكس فى مثل : اعتمدت وانكشفت .

وقد تكتب الكلمة مرة بالتاء المربوطة ومرة بالتاء المفتوحة فى صفحة واحدة ، مثل : لغة .

— كتابة الألف المقصورة ألفاً ممدودة فى مثل : المرعى ، ويخفى ، ويعنى ، وحكى .

* * *

ولم تفصل المخطوطة بين أجزاء السيرة بل سردتها دون تبويب ، وقد وجدنا فى مخطوطة ليدن تبويبا على الهامش فرأينا أن نجعله بآخره ونضعه مع فهارس الكتاب تحت أرقام صفحاته بعنوان « فهرست الموضوعات » .

* * *

— ومخطوطة « ليدن » محفوظة فى دار الكتب بليدن وتحمل رقم ١٩٥٨ م ، وهى من المخطوطات التى وقعت لهذه الدار من مكتبة خاصة بالمدينة وتقع فى ٣٧ ورقة بأولها خرم وصفها لندبرج فى (فهرست المخطوطات العربية التى وقعت للدار بليدن من مكتبة خاصة من المدينة ، تحت رقم ٢٣٥ كما وصفها « بريتوريوس » فى مجلة (جمعية الاستشراق الألمانية ، عدد ٣٩ صفحة ٤٠٣ وما يليها) .

وكتبت هذه المخطوطة سنة (١٠٦٠ هـ) أى بعد عام وخمسة أشهر من رجوع صاحب الرحلة . وبها حواش وتصحيحات بخط يختلف عن الخط الذى كتبت به المخطوطة . وربما كان هذا من خط المؤلف الذى أملى رسالته على كاتبها ثم راجعها ، أو حققت على نسخة بخط المؤلف ، ففى ورقة (١١ ا) سطر (٣) عبارة (والإلتجاء إليه والاعتماد) فأضاف إليها (عليه) وفى نفس الصفحة سطر (٦) أضاف حاشية بعد كلمة أنبسا (ومعنى هذا الإسم واحد من الأسود) .

وفى صفحة (١٣ ب) أضاف عبارة « بالأمير بعل جادة » بعد اسم (إسحاق) .

وفى آخر صفحة (١٤ ا) : « فتلقانا أمير هذه البلاد رجل » ، وكتب فوقها « غابه عنى اسمه » ثم شطبت وكتبت على الهامش : « يحقق اسمه قباقسطوس » .

وفى المخطوطة ترك أحياناً بياضاً لكتابة أسماء الأشهر مثل صفحة (٢ ب) (فى شهر   من عام) وكان عليه أن يختار بين شهرى محرم وصفر .

أما أول المخطوطة فهو مخروم ويبدأ الكتاب بعبارة : « المنصور بالله القسم بن محمد بن رسول الله صلى الله عليه وعليهم أجمعين » .

وهناك مخطوطتان أخريان : إحداهما بمكتبة ليدن من مجموعة « سنوك دى هرغرونيه » ، والأخرى بالتيمورية بدار الكتب المصرية . وقد أغفلنا الاعتماد عليهما إذ هما صورتان مكررتان للأصلين اللذين اعتمدنا عليهما . هذا فوق ما فيهما من تحريف يثقل به التعليق دون طائل .

٣ — تعريف بالمؤلف

يذكر المؤلف سبب القيام بهذه الرحلة ، وهو رجاء متكرر من الامبراطور « فاسيلادس » أمبراطور الحبشة إلى إمام اليمن المؤيد بالله ، ومن بعده المتوكل على الله ، فى أن يرسل إليه أحد من يثق بهم الإمام ليفضى إليه بسر . ثم يصف المؤلف رحلته ذهاباً وإياباً وإقامته فى مقر الامبراطور وهى مدينة « جوندار » ، ولم يذكرها المؤلف بالإسم ولكن وصفه للطريق والمكان يدل على أنها مدينة « جوندار » التى كانت عاصمة المملكة الحبشية فى عهد « فاسيلادس » . وبالكتاب قصيدتان للمؤلف .

ورد ذكر هذه الرحلة فى كتب مختلفة :

فقد جاء فى تاريخ الكبسى (مخطوطة فى مكتبة برلين رقم ٢٥١) ورقة (١٦١) سطر (١١) وما يلى :

« وفى سنة سبع وخمسين وفد على الإمام رسول ملك النصارى بالحبشة ، وكان قد أرسل أولا إلى الإمام « المؤيد بالله » عام اثنين وخمسين وألف ، ووجه هدية من الرقيق والزباد والبغال وسلاح الحبشة ، وضمن جميعاً استدعاء رسول من الإمام لإفاضة ما فى نفسه من الكلام ، فطمع الإمام فى إسلامه واستأنس ظاهر كلامه ، وأنفذ إليه القاضى العلامة الرئيس « الحسن بن أحمد الحيمى » صحبة رسوله » فوصل إليه بعد مشاق هائلة ومسافة طويلة وانعكس ذلك الأمل »

ويلاحظ أن النص الذى بأيدينا قد أسقط كلمة : « البغال » من الهدايا .

* * *

وفى مخطوطة بمكتبة برلين رقم (٢٢٣) ترجمة لحياة المؤلف كتبها ابن أخيه صفحة (٤٩ب) وفيها لقب المؤلف : « مولانا وجدنا الإمام العلامة المجاهد الخطيب حاكم الشريعة الوزير الأعظم الزاهد الموتوى الأسد المتمنع شرف الإسلام الحسن ابن احمد بن صالح بن دعيش بن محمد بن حمزة الحيمى أصلا ومولداً الكوكبانى محلا ومقعداً » .
وقد نسبه إلى حمزة ، وهذا يفسر لنا البيت (٣٢) فى القصيدة الأولى :

وناد بأبناء المكارم حمزة   تجبك سيوف منهم وحراب

وذكر أنه ولد فى الحيمة بالقرب من كوكبان عام (١٠١٧) للهجرة ، ثم أقام فى كوكبان . أى إنه سافر فى رحلته هذه وهو ابن أربعين .

ويذكر أنه وصف رحلته والصعاب التى لاقاها فى رحلته التى سماها : « حديقة النظر وبهجة الفكر فى عجائب السفر » . وهو على ما يظهر عنوان هذه الرحلة . ولم نعثر عليه فى المخطوطتين اللتين وقعتا لنا .

وفى ترجمته هذه ذكر له قصائد مختلفة ، منها القصيدتان اللتان وردتا فى هذا الكتاب .

وذكر القصيدة الأولى معلقاً بأنه أنشأها فى الحبشة ودعا فيها أمير المؤمنين « المتوكل على الله » لمحاربة الحبشة والمسارعة فى ذلك ، يشير بذلك إلى قوله :

فشمر أمير المؤمنين لحربهم   فهم نَقَد(١) البيدا وأنت عُقاب

وذكر القصيدة الثانية معلقاً على ذلك بأنه وضعها فى الحبشة حين بعثه أمير المؤمنين « المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم بن محمد » إلى مالكها « سجد فاسيلادس » .

أما طلب الأمبراطور « فاسيلادس » الأول إلى الإمام فقد وجدناه مفصلا فى مخطوطة ببرلين عن سيرة الإمام المؤيد بالله (رقم ١٤٧ ورقة ٢٣٩ وما يلى) . وذكر فيها أن رسول الأمبراطور وصل فى رمضان من سنة ١٠٥٢ وقد دون فيها رد الإمام ورسالة « فاسيلادس » .

ونلاحظ على المؤلف أنه ذكر عن نفسه أنه رجع من حجه الثالث فى غرة ربيع الاول من سنة (١٠٥٧هـ) بعد وصول رسول ملك الحبشة إلى الإمام ، ولما لم يعرف

---

(١) النقد : الغنم الصغار .

على وجه التحقيق الشهر الذى وصل فيه رسول الملك فى شهارة من سنة (١٠٥٧ هـ) ترك مكان الشهر بياضاً حتى يتأكد منه[١] وهذا يدل على دقته فى التحرى وحرصه على توخى الصدق فى الرواية . وكذلك ما ذكره عن وصول رسول من ملك الحبشة إلى الإمام « المؤيد » سنة « ١٠٥٢ هـ » ولم يكن يعرف عنها شيئاً بل نسبها إلى قائلها القاضى « أحمد بن سعد الدين المسورى[٢] » .

(١) انظر (ص ٨٠)
(٢) انظر (ص ٧٩)

٤ — ترجمة المؤلف

الحسن بن أحمد اليمنى المعروف بالحيمى

(أ) عن

خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر

(ج ٢ ص ١٦ — ١٧)

الحسن بن أحمد اليمنى المعروف بالحيمى ترجمة الأخ الفاضل مصطفى بن فتح الله فى مجموع له ، فقال فى حقه :

فائق أقرانه ، وسابق ميدانه ، وأحد الأعيان الأفاضل الذى بدا سنا الإقبال فى سماهم ، وأعرب مبتدأ عمرهم عن منتهاهم ؛ ومن غدا نجم سعادته سابقاً لائحاً ، وراح مسك شذاه عابقاً فائحاً .

كان كما أخبر به تلميذه « صالح بن المهتدى المقبلى » إماماً فى الفقه مشاركاً فيه مشاركة تامة ، وكان كذلك فى غيره من العلوم صاحب تدبير ورياسة ومعرفة فى الأمور المهمة ، معظماً عند الدولة مشاراً إليه . وكذلك أرسله الإمام « المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم » رسولا إلى الحبشة فى أغراض مهمة قضيت بنظره على أحسن حال . ألف رسالة فى الحبشة لطيفة . وهو والد القاضى محمد ويحيى الآتى ذكرهما . وله شعر حسن ، منه قوله :

فؤاد على هجر الأحبة لا يقوى   وكيف وربع العامرية قد أقوى
وصبر ولكن غاله الهجر والنوى   فلا نفع للمهجور ولا جدوى
ولكننى قد ذبت فى الوصل بالرجا   وكم ذى لبانات تمتع بالرجوى
فيأيها الخل الذى أنا صبه   عليك بآداب الحديث الذى يروى
ومن علينا بالوصال فإننى   رأيت حديث المن أحلى من السلوى

وكانت وفاته فى سنة إحدى أو اثنتين وسبعين وألف . رحمه الله تعالى .

(ب) عن

أنباء الزمن فى تاريخ اليمن

مخطوطة دار الكتب المصرية ، رقم (١٣٤٧) تاريخ . صفحة ١٧٣

وفى سنة (١٠٥٦ هـ) جاءت كتب إلى الإمام من سلطان الحبشة المسمى « سجد » وتقدم ذكر مثلها إلى « المؤيد » ، وكان فى الكتب مايوهم منه الميل إلى الدخول فى الملة الإسلامية . واستدعى وصول عالم إليه ، يبوح له بمكنون سره ويطلعه عليه ؛ فوقع النظر إلى إرسال القاضى « حسن بن أحمد الحيمى الجمالى » وستين نفراً من العسكر ، وأصحبه من المال كثيراً — ولم يزل يتابع القطار ويوالى ، وأصحبه هدية نفيسة ، وأعطى رسل السلطان — ومنهم الحاج « سالم بن عبدالرحمن » وغيره من أهل ذلك الدين ، مكافأة وتأليفاً ، لترويج هذا المقصد عندصاحبهم والتحسين ؛ ونفح لهم بعطية سنية ، وما يلائم بلادهم من الأكسية ، وركب القاضى المذكور معهم من « المخا » فصار الجميع فى يومهم إلى بندر « بيلول » على أعناق النسيم الرخا ، ثم صار محل السلطان المذكور بعد أن كابد أهوالا ولقى شدة أحوال من القالة وغيرها ، وله فيه كتاب وصف فيه سفره منذ عزم من حضرة الإمام إلى آخر سفره ، وهو مشهور .

ولما كان هنالك وجد الأمر على خلاف ذلك وأن المقصد غير المقصد ، والثبات على النصرانية من « سجد » وإنك لفى واد وأنا فى واد ، وكم بين مريد ومراد ؛ وغاية الأمر أن يقال إنه كاتب الإمام فى اليمن ، وطمع فى طريق التجار من غير بنادر الترك وصرح به وأعلن ؛ فتخلص القاضى للرجوع بعد أن أقام زماناً ، وقاسى من الأهوال ما عانى ؛ وكانت طريقه « المسوع » ".

(ج) عن

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع

للقاضى العلامة شيخ الإسلام « محمد بن على الشوكانى » المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ
مطبعة السعادة القاهرة سنة (١٣٤٨م) الجزء الأول صفحة ١٨٩ إلى صفحة ١٩١ :

الحسن بن أحمد بن صلاح اليوسفى الجمالى اليمانى المعروف بالحيمى .

أحد أعيان دولة الإمام المؤيد بالله بن القاسم وأخيه الإمام المتوكل على الله . وهو من أكابر العلماء وأفاضل الأدباء ، وكان يقوم بالأمور العظيمة المتعلقة بالدولة ، ثم يشتغل بالعلم درسا وتدريساً . وكان يوجهه الإمام المتوكل على الله فى المهمات فصاحته ورجاحة عقله وقوة تدبيره . فمن جملة ما بعثه إليه من المهمات إرساله إلى حضرموت ، لما وقع الاختلاف بين السلاطين آل كثير . فقام بالأمر أتم قيام ، وصلحت الأمور بحميد رأيه وجميل عنايته . ووجهه أيضاً إلى سلطان الحبشة لما وصلت اليه منه كتب تتضمن رغوبه فى الإسلام ، ويطلب وصول جماعة من آل الإمام إليه ليسلم على أيديهم . فتوجه فى نحو خمسين رجلا ، وركب من بندر المخا ، ثم توجه من هنالك ولاقى مشاقاً عظيمة ، واستمر فى الطريق سفراً وإقامة نحو تسعة أشهر فوصل إلى سلطان الحبشة فى عيد للنصارى ، فدخل على السلطان ، لابساً شعار الإسلام من الثياب البيض . وكان السلطان غير مريد لما أظهره فى كتبه من الرغوب فى الإسلام ، بل معظم قصده المراسلة ، كما يفعله الملوك وأنه يريد إصلاح الطريق . فلما استقر صاحب الترجمة فى مدينة السلطان أضافه وأكرم أصحابه ، وأراد أن يخلع عليه خلعة حرير خالص وسوارين من الذهب . فقال له : هذا لا يحل فى شريعتنا .

وكان لصاحب الترجمة فى تلك البلاد صولة عظيمة ، حتى كان أصحابه يبطشون بالنصارى إذا تعرضوا لهم ويضربونهم . وشاع عند الحبشة أن العرب الذين هم أصحاب المترجم له يأكلون الناس ، فزادت مهابتهم فى صدورهم . وكان أعظم معين لهم على ذلك البنادق فأنه لايعرفها أهل الحبشة إذ ذاك ، ولولا هى ماقدروا على مرور الطريق ،

فإنهم كانوا ينصبون عليهم كالجراد ، فيرمونهم بالبنادق فيقتلون منهم وينهزمون ويفزعون لأصواتها وتأثيرها . ثم لما أيس صاحب الترجمة من إسلام السلطان طالبه بالإذن له بالرجوع إلى ديار الإسلام ، فتثاقل عنه ، ثم بعد حين أذن له ، وكان لا يصحو من شرب الخمر ، فعين له وقتاً يصل إليه للوداع ، وترك شرب الخمر فى ذلك اليوم ، وجمع وزراءه وأمراءه وأعيان دولته . فأمر صاحب الترجمة أصحابه أن يرموا بالبنادق عند وصولهم إلى باب السلطان كما يفعله أهل اليمن ، ويسمون ذلك تمشيرة . فلما سمع السلطان أصوات البنادق هرب من إيوانه وهرب الوزراء وسائر أصحاب السلطان . فدخل صاحب الترجمة الدار ، ثم بعد ذلك عاد السلطان إلى مكانه وأخذ فى أهبة توجيهه إلى بلاد الإسلام .

وكان جملة بقائه لديه ثلاث سنين (كذا) ورجع إلى حضرة الإمام سالماً . وهذه الرحلة مشتملة على عجائب وغرائب قد جمعها صاحب الترجمة فى كراريس هى بأيدى الناس .

ومن شعره أيام إقامته بالحبشة هذه الأبيات :

على كل سَعى فى الصلاح ثوابُ	وكل اجتهاد فى الرّشاد صوابُ
وليس على الإنسان إدراكُ غاية	ودون مَداها للعيون حجاب
ولو عَلم الساعون غايةَ أمرهم	لما كان شخص بالشرور يُصاب
فقل لأمير المؤمنين لقد دَعا	وحَقّ له بعد الدّعاء يُجاب
ولكنّ دَعا قوماً يظنّون أنهم	رمَوا عَرضاً فى دينهم فأصابوا

وهى أبيات طويلة جيدة . وله أشعار أيام إقامته هناك وشعره جيد .

مات فى شهر ذى الحجة سنة ١٠٧٠ (سبعين وألف) .

[هامش] . وفى بهجة الزمن أن وفاة القاضى حسن بن أحمد الحيمى فى ثانى عيد النحر أو ثالثه من سنة ١٠٧١ (إحدى وسبعين وألف) . وكان حاكماً ببلاد كوكبان ، وسكونه بمدينة شبام حمير تحت كوكبان .

٥ — تعقيب على الرحلة

ذكر المؤلف عرضاً إسم الرسول الذى أرسله ملك الحبشة فى صفحة (٧٩) وهو الحاج سالم بن عبد الرحيم .

ولم يذكر الطريق الذى سلكه رسول الملك الاول فى سنة ١٠٥٢ هجرية إلى الإمام المؤيد بالله ، ولكن إذا علمنا أن فلول الاتراك أخلت المخا فى عام ١٠٤٥ قدرنا أن طريق الذهاب كان مثل طريق العودة (المخا — بيلول) الذى ذكره فى صفحة (٨٠) أى طريق : (بيلول — المخا) .

وقد كان لفسيلادس من يمثله فى مصوع ، ولذلك أعلمه طرد الاتراك من اليمن فى حينه . وحمله هذا على تقدير قوة الإمام وشجعه على الاتصال به .

وظاهر مما ذكره فى صفحة (٧٩) أن الطريق بين سواحل الحبشة وسواحل اليمن لم تكن مأمونة بسبب الاتراك ، حتى إن خبر وفاة الإمام المؤيد — فى ٢٧ رجب سنة ١٠٥٤ هلم يصل إلى الحبشة إلا فى أواسط عام ١٠٥٦ هجرية (صفحة ٨٠) .

أما الطريق الذى سلكه رسول ملك الحبشة فى اليمن فقد ذكره المؤلف ، وهو من المخا إلى زبيد ثم مور فالامروخ فالاهنوم فشهارة ؛ ولما وقع اختيار الإمام على الحيمى لإيفاده فى هذه المهمة أرسل فى صحبته اثنى عشرة من حملة البنادق وعشرة من المشاة ، وخرج من المخا بعد أن جهز حاكمها المراكب بالمهمات والجند وكان خروجهم من شهارة فى غرة جمادى الثانية سنة ١٠٥٧ ه ، وأبحروا من المخا فى نصف شهر شعبان ، وقطعوا المسافة بين المخا وبيلول فى يومين بحرا ، ثم مكثوا فى بيلول مدة شهرين وأمضوا شهر رمضان بها .

ويمكن أن نتبين على وجه التحقيق الطريق الذى قطعوه من ميناء بيلول إلى مدينة جوندار حيث الامبراطور .

وقد تحدث لنا فى كتابه عن موعد قيامه وموعد وصوله ومدة إقامته فى كل من من المواضع التى مر بها فى رحلته ، وبذلك أمكننا أن نتبع الطريق الذى سلكه :

٨ من شوال سنة ١٠٥٧ القيام من بيلول

١٠ من شوال مسيرة مرحلتين فى أرض مستوية ثم الدخول فى أودية بين جبال عالية .

٢٢ من شوال الوصول إلى عين ملى بمدا اثنى عشرة مرحلة .

٢٢ من ذى القعدة الارتحال بعد إقامة شهر كامل فى عين ملى .

٣٠ من ذى القعدة الوصول إلى جبل عظيم وبحيرة ماؤها مالح والإقامة هناك ثلاث ليال .

٤ من ذى الحجة الوصول إلى مكان به ماء .

٥ من ذى الحجة الوصول إلى واد ترعى فيه القافلة .

٩ من ذى الحجة الاجتماع بأمير أندرته .

١٤ من ذى الحجة الوصول إلى حدود الحبشة عند نهر وسمه وجبل كحل ثم جبل حنطالوه والإقامة هناك ٤٠ يوماً ، وقد قدر المسافة بين ساحل بحر بيلول وبين حدود الحبشة بمسافة شهر للقوافل .

٢٤ من محرم سنة ١٠٥٨ الخروج من بلاد أندرته .

٢٧ من محرم الوصول إلى بلادسحرت .

٢ من صفر الوصول إلى بلاد أبرقلى والنيل الازرق .

٩ من صفر الوصول إلى بلاد الفلاشة ووادى أغنة وجبل سمين .

٢٠ من صفر الوصول إلى بلاد الأمحرة ودخول قرية قريبة من مدينة الملك .

٢٥ من صفر الدخول فى عاصمة المملكة .

وكانت إقامته فى العاصمة جوندار ٩ أشهر ، أى إلى آخر شهر ذى القعدة .

أما سبب إقامته الطويلة فى عاصمة المملكة فقد ذكر أن الملك طلب إليه البقاء ، ثم ذكر أيضاً أن سفره امتنع لدخول فصل الأمطار ، والواقع أن فصل الأمطار يبدأ تقريباً فى ربيع الاول ويستمر حتى نهاية رمضان فى تلك السنة وكان عليه أن يبقى حتى ينتهى فصل الأمطار . ولما انتهى فصل الأمطار طلب من الملك أن يأذن له فى السفر ، فأخذ الملك يماطله لانه كان يريد أن يعود كما جاء عن طريق بيلول لا عن طريق مصوع ، لأن

كل ما فعله الملك فى استدعاء الرسول من اليمن والإلحاح فى ذلك دون أن يبين قصده ، إنما كان لفتح منفذ إلى البحر عن طريق بيلول .

ولما رأى الملك أن الرسول لا يريد أن ينثنى عن عزمه فى السفر عن طريق مصوع حاول الملك ترغيب بعض من صحبوا الرسول فى البقاء .

وكان الباشا حاكم سواكن قد بلغه أن العرب دخلوا الحبشة عن طريق بيلول ، فأخذه القلق وأرسل إلى جوندار أحد أعوانه لتشجيع الرسول ومن معه على السفر عن طريق مصوع ، وقد تم لهم ذلك .

هذا وكان أثر استعمال الأسلحة النارية فى الشرق ظاهراً ، ولعبت هذه الأسلحة نفس الدور الذى لعبته فى الغرب قبل ذلك بقرن . وانقلبت التنظيمات الحربية القديمة وضاعت أعمال الفروسية أمام استعمال الأسلحة النارية ، فقد تغلب أمير هرر بمساعدة بنادق الاتراك على ملك الحبشة ، وأوقف البرتغال هذا التقدم باستعمال أسلحتهم النارية . وقامت المنافسة فى ذلك الوقت بين البرتغال والاتراك على حماية طريق التجارة فى البحر الاحمر ، ولعبت الأسلحة النارية دورها واضطرت العرب إلى الإنكماش حتى استخدموها حين طردوا الأتراك من اليمن .

وبدأت سلطة البرتغال الدينية تضعف فى البحر الأحمر بالرغم من أن التجارة كانت لاتزال إلى حد كبير فى يدهم ، وكانت سفنهم تحمل التجارة إلى الهند ولكن الاتراك وقفوا لهم بالمرصاد وأخذوا فى القضاء على سلطانهم بالتدريج .

وكان الاتراك يعملون جادين على تملك الموقف وكان من صالحهم أن يرجع الرسول عن طريق مصوع ، وكانت فى هذه السنة هدنة بين اليمن والترك ، وكتب الإمام المتوكل إلى باشا الاتراك صاحب سواكن يأخذ منه الامان للرسول ، وتمت الرحلة من دباروى إلى مصوع ، ورجع الرسول وصحبه عن طريق الدهلك ووصلوا اللحية فى ٨ ربيع أول سنة ١٠٥٩ للهجرة، ومنها إلى شهارة ، أى بعد واحد وعشرين شهراً من تركهم لها .

٦ — علاقة الحبشة بالعالم الخارجي

كانت الحبشة منذ أقدم الأزمنة سوقاً تجارية هامة ، فقد كانت مورداً لا ينضب لعدد هائل من الرقيق الذى كان مطلباً من أهم مطالب الدول القوية القديمة ، كما كانت غنية بالأخشاب والتوابل وسن الفيل والجلود ، وكلها مواد مرغوب فيها تتحمل الرحلات الطويلة التى هى ميزة التجارة فى العصور القديمة . ولذلك ظلت الحبشة مقصداً لكثير من تجار الأمم القديمة ، فازدهرت موانيها التى كانت على البحر الأحمر وحمل التجار العرب منتجاتها إلى طالبيها .

ولقد كانت مكة ويثرب مركزين هامين من مراكز التجارة يقعان فى الطريق الذى يؤدى إلى الدولة الرومانية الشرقية ، كما كانت اليمن وحضرموت تؤديان إلى الدولة الفارسية .

وفى سبيل تأمين هذه التجارة والطرق التى تسلكها غزت الحبشة بلاد اليمن قبل الإسلام وبسطت عليها سلطانها ، وإذا كان اضطهاد ذى نواس لنصارى نجران ، وطلب هؤلاء المسيحيين النجدة من إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية ثم من ملك الحبشة ، هو السبب الظاهر لغزوة الحبشة لهذه البلاد فقد يكون السببان : الدينى ، وهو نجدة المسيحيين ، والاقتصادى ، وهو الرغبة فى حماية الطرق التجارية ، قد سارا جنباً إلى جنب فى قيام الحملة ونجاحها . ولأجل تأمين هذه الطرق التجارية أيضاً حاولت الحبشة غزو مكة ، إلا أن ماوقع بجيوشها من مرض أعقبته هزيمة ، فوت عليها غرضها وأطمع فيها الدولة الفارسية ، فساعدت على إخراجها من الجزيرة العربية ، وتلا ذلك خروج هذه الأسواق من يد الحبشة ووراثة الفرس لها .

ولقد أدى وقوع الحبشة على البحر الأحمر ، ووجود الدولة الرومانية الشرقية فى فلسطين ومصر ، وكذلك اعتناق كل من الدولتين للديانة المسيحية وللمذهب الشرقى إلى ارتباطهما معاً برباط من المودة الوثيقة ، حتى أن غزوة الحبشة لجنوب شبه الجزيرة لم تتم إلا بالمساعدة البحرية التى قدمتها الدولة الرومانية الشرقية ، ولذا كان البحر الأحمر مشتركاً بينهما أى بحيرة حبشية رومانية .

وكان ظهور الإسلام ضربة قوية لكل من الدولة الرومانية الشرقية والحبشة ؛ فقد خرجت من يد الأولى الشام وفلسطين ومصر فحرمت من أن تطل على البحر الأحمر ، وحرمت الحبشة من هذا الحليف القوى الذى كان يمدها وقت الحاجة بالمعونة الحربية والثقافية والدينية . وكان تبادلهما التجارى ذا منفعة لكليهما وكذلك حرمت الحبشة من عميل ثرى هو الدولة الفارسية ، لن تستطيع الدولة الإسلامية الناشئة ، المحدودة المطالب ، أن تعوضها عنه .

فلا غرابة إذن إذا بدأ الضعف يدب فى الحبشة عقب ظهور الإسلام بقليل ، وأخذت سلطة الملوك فى الانكماش ، وخصوصاً عن الأجزاء البعيدة عن مركز الحكم كالشريط الساحلى الذى كان يطل على البحر الأحمر ، وأخذت ترثه منها طوائف من العرب المسلمين المهاجرين إليها الفارين من سلطة الخلفاء الأمويين والعباسيين ، الذين جدوا فى مطاردة أعدائهم وإرغامهم على الهجرة إلى حيث يكونون بعيدين عن متناول أيديهم .

وعلى يد هؤلاء القادمين الجدد ، ومن اختلط بهم من الأحباش ، استعاد البحر الأحمر نشاطه القديم وازدهرت التجارة فيه مرة أخرى ، وخصوصاً تجارة الرقيق . فقد ألحت الدولة الأموية وأسرفت الدولة العباسية فى طلب الرقيق كمظهر من مظاهر الثروة والنعمة اللتين تمتع بهما الخلفاء والأمراء والوزراء ورجال الدولة فيهما .

ولقد ظلت الحبشة مدة طويلة وهى لا تحاول أو لا تستطيع أن تخرج من هذه العزلة ، قانعة بأن تسد مطالب الشعب بما تنتجه البلاد من منتجات محلية محدودة .

وبالرغم من هذه الحالة السيئة فقد ظلت هناك علاقة واحدة مستمرة لا يعتورها الانقطاع ، وهى علاقتها بمصر ، رغم ما كان يصيبها فى بعض الأحيان من ضعف .

فقد كانت الحبشة تتبع مصر دينياً منذ أن دخلتها المسيحية فى القرن الرابع الميلادى ، فبطريرك الأقباط هو الذى يرسل إلى الحبشة مطرانها الذى هو رأس كنيستها ورئيس هيآتها الدينية كلها ، وهو الذى يتوج الامبراطور ، وهو الذى يعين القسس المنتشرين فى جميع أنحاء البلاد والقرى . وهؤلاء هم الذين يعمدون

أولادهم ويعقدون زواجهم ويصلون على موتاهم ويفقهونهم فى الحلال والحرام من حياتهم المدنية .

ولكن الاضطراب كثيراً ما كان يعتور هذه العلاقات ، فقد يحدث أن يخلو منصب المطران لمدة كبيرة لصعوبة المواصلات بين البلدين ، وبسبب ما كان يتعرض له مسيحيو مصر فى بعض الأوقات من معاملة شاذة من بعض الولاة والخلفاء القصيرى النظر الذين لم يقدروا خطورة هذه العلاقة تقديرها الصحيح . وبسبب الظروف السياسية التى تجتازها الحبشة ، فعند قيام الأسرة الزجوية مثلا فى القرن العاشر الميلادى ، ظل منصب المطران شاغراً لمدة خمسين سنة . وعند قيام الأسرة السليمانية فى القرن الثالث عشر ظل منصب المطران شاغراً كذلك تسع عشرة سنة . وعند تولية الامبراطور تيودوروس الثانى سنة ١٨٥٥ م كان المنصب شاغراً لخمس وخمسين سنة . وإذا كان هذا فى العصر الحديث فهو ولا شك أهون حالا مما كان يحدث فى العصر القديم .

وفى أثناء هذه الفترات شغرت — ولاشك — أكثر مناصب القسس إن لم يكن كلها ، فتعطلت الصلاة وتعطل تعميد الأطفال ، ودفن الموتى بدون صلاة ، واضطر المسيحيون الأحباش إلى الزواج بدون الالتجاء إلى الكنيسة ، وإلى مباشرة حياتهم المدنية دون أن يتبينوا الحلال من الحرام .

واستمرار هذه الحالة وتكررها بعث الاضطراب ولا شك فى الحياة العامة لهؤلاء الناس ، وبخاصة أن هذه الحالة لم تستمر لمدة قصيرة ، بل دامت أكثر من خمسة قرون .

ولقد حاول الامبراطور « يكونو أملاك » أول ملوك الأسرة السليمانية (١٢٧٠—١٢٨٥م) إصلاح هذه الأوضاع ، فبعث إلى مصر فى طلب مطران مصرى يشرف على الحالة الدينية ويعيد الاطمئنان إلى حياة الأهالى . كما حاول أن يعيد إلى الأباطرة بعض سلطتهم التى كان قد تقاسمها الأمراء والملوك المحليون ، وأن يعيد سلطة الامبراطور إلى الأجزاء الساحلية التى تطل بها الحبشة على العالم الخارجى ، فأقام على الولايات الإسلامية التى تكونت فى شرق الحبشة ، من المسلمين المهاجرين ومن

الأحباش الذين اعتنقوا الإسلام ، حكاماً مسلمين خاضعين له يكونون واسطة بينه وبين الأهالى ؛ فكان « عمر ولسمع » أول وال مسلم أقامه حاكما لولاية « إيفات » فى أواخر القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) .

ولم يقف عند هذا الحد بل سرعان ما تبين له أن مستقبل الحبشة يتوقف على العودة إلى السياسة القديمة ؛ وهى سياسة الاتصال بالخارج ، فبدأ بالاتصال الروحى التقليدى الذى كان يربط الحبشة بمصر ، فأرسل إلى السلطان « بيبرس البندقدارى » (١٢٦٠—١٢٧٧م) يطلب منه أن يأذن للبطريرك المصرى فى تعيين مطران للحبشة ، ونجده يمعن فى إذلال نفسه للسلطان بيبرس رغبة فى اجتلاب رضاه فيكتب إليه بالعربية فى لهجة متواضعة فيقول :

« أحقر المماليك — يقصد نفسه — يقبل الأرض بين يديك » .

ولكن إذا كان قد كتب الفشل على هذه المحاولة فقد حاولها مرة أخرى ابنه « يجباصيون » (١٢٨٥ — ١٢٩٤م) عندما كتب إلى السلطان « قلاوون » يجدد الطلب فى تعيين مطران مصرى ، بل إنه يخطو خطوة إيجابية أكثر من أبيه ويتقدم نحو إيجاد علاقات مستمرة مع مصر غير الصلات التقليدية ؛ فيطلب إلى السلطان قلاوون (١٢٧٩ — ١٢٩٠) فى لهجة متواضعة أيضاً أن يحسن معاملة المسيحيين فى مصر كما يحسن هو معاملة المسلمين فى الحبشة ، كى تقوم على الدوام بين البلدين صلات من الود والصداقة تتوطد على الدوام بالرسل والسفراء .

وسار على نفس السياسة جميع الاباطرة الذين توالوا على العرش الحبشى بعد ذلك ، إذ أدركوا جميعاً أن حياة الحبشة تتوقف على إيجاد صلات مستمرة إيجابية مع الخارج .

ففى سنة (١٣٨٣ م) عندما غزا الامبراطور داود (١٣٨٢—١٤١١) أسوان وأرسل إليه السلطان « برقوق » بواسطة البطريرك يطلب إليه الانسحاب ، لم يتردد عن إجابة الطلب رغبة فى تجنب كل ما يؤدى إلى الإساءة إلى هذه العلاقات التى عمل هو وآباؤه من قبله على إيجادها وتقويتها فى كل فرصة مناسبة . وفى سنة (١٤٤٢) أرسل الامبراطور « زرأيعقوب » (١٤٣٠—١٤٦٥) الى السلطان « برقوق » الاب

« اندراوس الأنطونى » ومعه عشرون جملا محملة بالهدايا ومعها خطاب يطلب فيه تجديد ما كان بين مصر والحبشة من صلات حسنة فى عبارات صريحة فيقول له :

« وقصدنا تجديد ما سبق من العهود من الملوك المتقدمين من بلادنا وبلادكم اتباعاً لآثارهم المشكورة وقصدنا إعلامكم ذلك بشارة لكم ليكون ذلك العهد مستمراً بلا انحراف والاتفاق بيننا وبينكم بلا خلاف » .

ولم تكن هذه المحاولة هى الوحيدة لهذا الامبراطور للاتصال بالخارج ، بل أرسل بعثة دينية برياسة الشماس « بطرس » إلى مجمع « فلورنسا » الدينى سنة (١٤٣١) وهناك شرح الوفد للمجتمعين أن عقيدتهم الأرثوذكسية والعقيدة الكاثوليكية متفقتان . وقد خلدت هذه الوفادة فى صورة ما زالت محفوظة فى الفاتيكان ، وهى الدليل الوحيد الباقى على أن هذه البعثة قد أرسلت فعلا .

وبينما كانت هذه المحاولات تبذل فى الحبشة للاتصال بالخارج كانت هناك محاولات أخرى تبذل من الخارج للاتصال بالحبشة . فلم يكد الأمير « هنرى الملاح » يعين حاكما على مدينة « سبتة » على الساحل الشمالى لإفريقية حتى سمع من أفواه التجار الذين يفدون إلى مدينته أن هناك مملكة مسيحية سوداء يحكمها ملك مسيحى أسود تكمن وراء الصحراء الكبرى ، فخطرت له فكرة الاتصال بهذه المملكة المسيحية السوداء ليؤسس معها علاقات دينية وتجارية تؤدى إلى القضاء على المسلمين فى مصر ، الذين يضربون الضرائب الفادحة ويقفون عقبة فى سبيل استمرار سير التجارة الهندية . وعلى هذا الأساس بدأت محاولات البرتغال لاكتشاف ساحل إفريقية الغربى ، وهى المحاولات التى استمرت حتى أدت إلى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وإلى تأسيس الامبراطورية البرتغالية فى الهند .

ولقد كانت محاولات البرتغال لاكتشاف الطريق إلى الهند فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ثم تأسيس هذه الإمبراطورية البرتغالية فيما وراء البحار ، بدء مرحلة جديدة بالنسبة لتاريخ الحبشة وعلاقتها بالدول الأجنبية .

إذ أنه فى هذا الوقت بالذات كان الأتراك العثمانيون قد استقروا فى آسيا الصغرى وأخذوا يدفعون بجيوشهم نحو الغرب للاستيلاء على ما يسمى الآن بالشرق الأدنى ، ونجحوا فى ذلك نجاحاً منقطع النظير . ولم يلبث أسطولهم أن أخذ فى التكون وفى مزاحمة

الأسطول البندقى ليطرده من هذه الأجزاء ويستولى على مراكزه التجارية ، فلم يكد يمضى النصف الأول من القرن الخامس عشر حتى كانت سيادة الأسطول التركى على الركن الشمالى الشرقى للبحر الأبيض المتوسط كاملة . ولم يكد ينتهى هذا القرن حتى فتحوا العراق وأطلوا على الخليج الفارسى وشهدوا صراع البرتغال فى المياه الهندية . ولم تكد تمضى السنين الأولى من القرن السادس عشر حتى كانت سلطتهم على هذه الأنحاء تامة وأسطولهم يمخر هذه الأجزاء البعيدة ليشهد هزيمة الأسطول المصرى أمام الأسطول البرتغالى فى موقعة « ديو » سنة (١٥٠٩) .

وقد كان استيلاء السلطان سليم (١٥١٢ — ١٥٢٠) على مصر فى سنة (١٥١٧) بدء المرحلة النهائية فى سبيل السيادة البحرية التركية . فقد جعلهم ذلك يستولون على البقية الباقية من الأسواق التى كانت مفتوحة أمام البنادقة ، فصاروا القوة الوحيدة فى البحر الأبيض المتوسط ، كما أطلوا على البحر الأحمر الذى أصبح يقع بين فكى الكماشة التركية . فكان من الطبيعى أن تكون منطقة البحر الأحمر — حيث تقع الحبشة — موضع الصراع بين هاتين القوتين الناشئتين تبغى كل منهما السيطرة على الأخرى والانفراد بالمراكز التجارية فيها ، ومن ثم إلى احتكار التجارة الهندية ذات المورد الفياض .

إن استيلاء الأتراك على ساحلى البحر الأحمر يجعلهم المهيمنين الوحيدين على جميع المراكز التجارية فى أغلب أجزاء طريق التجارة ، كما يسهل عليهم قطع طريق التجارة على البرتغاليين وطردهم ، ومن ثم إلى احتكار التجارة الهندية .

ففى أقل من سنة بعد فتح مصر اجتاح سنان باشا جزيرة العرب ، واحتل جميع ساحل البحر الأحمر الشرقى ، ثم أعقب ذلك بالاستيلاء على « سواكن » على الساحل الغربى وأقام بها حامية وجمركا ، كما استولوا على « زيلع » وأقاموا بها كذلك جمركا وأسطولا مكوناً من قطع صغيرة سريعة لمهاجمة سفن التجار .

ومن هذا الجزء تطلعوا إلى الحبشة وودوا السيطرة عليها كذلك ، فخيل إليهم أنهم إذا استطاعوا أن يقيموا دولة إسلامية فى الحبشة تسيطر على الساحل الغربى للبحر الأحمر فقد كملت سيادتهم على طريق التجارة الهندية كله وأمكنهم أن يقبضوا بيدهم على السيادات التجارية فى العالم أجمع . فاتصلوا بمسلمى الولايات الشرقية فى

الحبشة ووحدت العقيدة الدينية بينهما ثم وجدت فيهم الإمام أحمد بن إبراهيم أمير هرر ورأت فيه القوة المحركة التى تستطيع أن تدفع بها فى هذا السبيل ، فدفعت إليه بالمال والرجال والذخيرة وخصوصاً المدافع والبنادق كما اتخذت من تدينه وتقواه وسيلة لإظهاره أمام مسلمى تلك الجهات قائداً دينياً يجمع كلمة المسلمين ويوجهها نحو الكفر المسيحى .

ولم يكن البرتغال أقل من الأتراك إدراكاً لهذه الحقائق ، فبعد أن استقروا فى الهند أخذوا فى نشر نفوذهم وتوطيد امبراطوريتهم فجدوا فى البحث عن هذا المنافس ليحطموه ويسودوا البحار ويحتكروا التجارة الهندية . فكانت الحبشة المسرح الذى التقت فيه هاتان القوتان المتنافستان لأجل السيادة على الطرق التجارية والبحرية .

ولقد أثمرت هذه المساعدة التركية سريعاً فثار الإمام أحمد بن إبراهيم الملقب (جرانيا) أى الأشول على الامبراطور «لبنادنجل» (١٥٠٦ - ١٥٤٠) ونجح بفضل المعونة التركية فى أن يكتسح الحبشة كلها ويهزم الجيوش الامبراطورية أنى وجدها ، حتى لقد اضطر الامبراطور أن يفر أمامه من بلد إلى بلد يتقاسمه الخوف والجوع والمرض . وأخذ الإمام بعد ذلك يتصرف فى الحبشة كلها تصرف الملك المستقل صاحب الأمر والنهى ، فأخذ يرسل الولاة من قبله إلى جميع أجزاء البلاد لفتحها وإخضاع أهلها وجمع الأموال منهم أو الانفاق معهم على طريقة أدائها ، واستقر هو فى «دمبيا» التى أعجبته لكثرة خيراتها واتخذ فيها عاصمته .

وإزاء هذا الخطر الداهم رأت الملكة «هيلانة» والدة الامبراطور «لبنادنجل» وزوجة «زرأ يعقوب» أن الطريق الوحيد لإنقاذ الدولة هو طريق الاتصال بالخارج والبحث عن حليف يستطيع أن يقدم لها المساعدة التى تمكنها من الوقوف فى وجه هذا الثائر وكسر شوكته . ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى تشير هذه الملكة فيها بمثل هذا الاتجاه ، فهى التى أشارت على زوجها «زرأ يعقوب» بأن يرسل البعثة الدينية إلى مؤتمر «فلورنسا» حينما رأت شدة شوكة الثوار فى الولايات الشرقية .

وأرسلت فى سنة ١٥١٥ بعثة إلى مصر حليفة الحبشة التقليدية ، وذات الصلات الوثيقة منذ أقدم الأزمنة ، وصاحبة الأسطول الكبير الذى كان يجوب البحر الأحمر وينشر النفوذ المصرى فى المحيط الهندى ويرغم حكام «دهلك» و «مصوع» على الخضوع له وتقديم موانيهم كقواعد له ، بينما كانوا خاضعين من الوجهة النظرية للحبشة .

ولكن حالة مصر فى هذا الوقت لم تكن تساعدها على مديد المعونة المطلوبة ، فقد كان على رأسها السلطان «الغورى» وكان يستعد بجيوشه لمحاربة السلطان «سليم» التركى الذى كان قد انتهى من غزو فارس وأظهر ما كان يضمره من نيات سيئة نحو مصر . فعولت على أن تطلب المعونة من البرتغال ذات الأسطول القوى الذى أصبح صاحب السيطرة فى المياه الهندية وحطم الأسطول المصرى فى موقعة «ديو» سنة (١٥٠٩) واحتل «قمران» و «دهلك» .

فبادرت وأرسلت فى هذا الشأن راهباً حبشياً هو «صجا زأب» إلى الملك «إيمانويل» ومعه مشروع معاهدة يتكفل فيها ملك البرتغال بمساعدة الحبشة فى حربها ضد هؤلاء الثوار ، فيمدها بالذخيرة على أن يكون نصيب «لبنادنجل» هو المال والرجال . كما أرسلت وفداً آخر إلى البابا «كلمنس» السابع (١٥٢٣ — ١٥٣٤) يعترف فيه «لبنادنجل» بتبعيته للكنيسة الغربية .

ولكن السنين مضت دون أن يرى «لبنادنجل» أثراً لهذه الوفادة ، واشتدت فيها ثورة الإمام أحمد ، وماتت الملكة هيلانة ، وأصبحت سلطة الامبراطور أثراً بعد عين . فلم يجد الامبراطور «لبنادنجل» بداً من أن يقدم عربون ولائه للكنيسة الغربية ، فعين «برمودز» الطبيب بطريركاً كاثوليكياً للحبشة ، واحتفل بعيد الفصح فى سنة (١٥٣٨) وفقاً للتقويم الجريجورى .

وبصفته بطريركاً للحبشة سافر «برمودز» إلى «لشبونة» وقابل الملك «خوان» الثالث ووصف له حرج مركز الامبراطور والمسيحيين فى الحبشة ، فزوده الملك بخطاب إلى نائبه فى الهند يكلفه إرسال أسطول برتغالى مزود بأربعمائة وخمسين جندياً لمساعدة امبراطور الحبشة ولمقاتلة المسلمين .

ورحل «برمودز» إلى «جوا» فوصلها فى سنة ١٥٣٩ فوجد «دى جاما» نائب الملك معنياً بالبحث عن الأسطول التركى ليحطمه .

وفى سنة (١٥٤٢) وصلت المعونة البرتغالية ممثلة فى أربعمائة وخمسين جندياً برتغالياً تحمل البنادق والمدافع يقودها «كرستوفر دى جاما» ومعهم «برمودز» وسرعان ما انضمت إلى جيوش الإمبراطور .

وفى فبراير سنة ١٥٤٣ هاجمت هذه القوة المتحدة جيوش الإمام أحمد بن إبراهيم الرئيسية فاخترقت فصيلة منها بقيادة «بدروليونى» الصفوف إلى حيث الإمام وأطلقوا عليه الرصاص ، فجرح جرحاً مميتاً ولما أيقن بالهزيمة إنسل إلى الغابة وحيداً وهو يقطر دما ، فتبعه «بدروليونى» حتى رآه يسقط عن جواده ميتاً ، فيقترب منه ويقطع أذنه ويذهب بها إلى الإمبراطور «جلاوديوس» (١٥٤٠ — ١٥٥٨) .

وبفضل هذه المساعدة الأجنبية قضى على الثورة وأفاقت الحبشة من هذا الكابوس وخرجت تركيا من هذه المحاولة مدحورة ، فاكتفت بعد ذلك بالإشراف على البحر الأحمر من سلسلة المواني التى استولت عليها على الساحل الغربى ، وهى : سواكن ، ومصوع ، وزيلع ، وبربرة . فكان من نتيجة ذلك أن حرمت الحبشة من أن تطل بصفة نهائية على هذا البحر وخيل للناس أن قد كتبت على الحبشة أن تعود مرغمة إلى سياسة الانكماش داخل كتلتها الجبلية ، بعد أن حرمت من هذه النافذة التى تطل بها على العالم الخارجى .

وخيل للبرتغال وللكاثوليك أيضاً أن قد خلصت لهم البلاد بعد أن تغلبت على هذا الخطر التركى الإسلامى بفضل مساعدتهم وحدها .

فعندما عاد الإمبراطور «جلاوديوس» إلى قصره عام (١٥٥٥) بعد انتصاره على القائد «نور» وجد فى انتظاره بعثة من ملك البرتغال قد وصلت أثناء غيابه برياسة «رودريجز» تحمل هدايا من الملك ، وكان ضمن أفراد البعثة مبشران من الآباء اليسوعيين يحملان خطابا من حاكم الهند وينحصر طلبهما فى أن ينضم «جلاوديوس» إلى كنيسة روما بعد أن يقطع علاقته بالكنيسة المصرية التى لاتستطيع حمايته ولاحماية نفسها من العنت الذى تلاقيه فى مصر .

ومن المفهوم أن تحول شعب بأسره من مذهب إلى آخر فى لحظة واحدة أمر لايسلم به عقل ، فأراد الكاثوليك أن يكونوا منطقيين مع أنفسهم فبدءوا بنشر عدة كتب باللغة الامهرية شرحوا فيها مذهبهم وقارنوه بالمذهب الارثوذكسى ، فشعر الاحباش — وعلى رأسهم كهنتهم — أنهم أمام هجوم منظم يرمى إلى النيل من كنيستهم وتحقيرها ، فلم يكن بد من مقابلة هذا الهجوم بمثله فولوا وجوههم شطر الكنيسة المصرية لتمدهم بالكتب التى يستطيعون ترجمتها إلى اللغة الامهرية لمقابلة هذا السيل الذى لا ينقطع من الكتب الكاثوليكية المترجمة ، ولم تتردد الكنيسة المصرية عن أداء مايحتمه عليها واجبها فى مثل هذه الظروف فأمدتهم بما يطلبون .

ولم يكن الإمبراطور جلاوديوس أقل من شعبه غيرة على مذهبه ، فقد كان متفقها فى الدين عالماً بأسراره ، ولم يتردد فى أن يطلب المطران الكاثوليكى إلى مقابلته ليناقشه فى الدين وليظهر له زيف معتقدات هذا الضيف وصدق مذهبه هو ، مستنداً فى ذلك إلى الإنجيل وإلى كتابات الآباء الأولين . ولم يتردد هو عن أن ينزل بنفسه إلى ميدان التأليف دفاعاً عن عقيدته فوضع كتابه المشهور «الاعتراف بالإيمان» .

ولم يكن الكاثوليك ينتظرون كل هذا الجدل ، وهذا العناء فى سبيل تحويل هذا الشعب الناكر للجميل عن عقيدته . ولذا لجئوا إلى طريق جديد هو طريق القوة ، فلم يترددوا عن تشجيع الثوار ومدهم بالسلاح إذا ما اطمأنوا إلى أن هؤلاء الثوار سوف يكونون عوناً لهم على تنفيذ مآربهم ، وكذلك لم يترددوا فى أن يمدوا أيديهم إلى المسلمين والأتراك يساعدونهم على احتلال أجزاء من البلاد ، مع أنهم ما أتوا إلى الحبشة إلا للقضاء عليهم . ويظهر أن مساعدة هؤلاء الكاثوليك للثوار كانت واضحة إلى حد أن دعا الإمبراطور «ميناس» (١٥٥٩ — ١٥٦٣) المطران الكاثوليكى وأمره فى لهجة قاسية أن يوقف نشاطه وأن يترك البلاد بالرغم مما كان يسبغه عليه قبل ذلك من حماية ورعاية .

ولقد أدى موقف الكاثوليك العدائى الصريح للأحباش عامة ولرجال الدين الوطنيين خاصة إلى تذمر الأحباش من هؤلاء الأجانب — وخصوصاً المبشرين — تذمراً ظهر فى كل نواحى حياتهم . فنظروا إليهم وإلى البابا نظرة ملؤها الحقد الذى

لايخلو من الخوف ، وأصبح نعت الحبشى بأنه كاثوليكى مسبة يلقونه على من يكرهونه من الأحباش أو الأجانب على السواء ، ولقد تمكن هذا الشعور منهم وتوارثوه جيلا بعد جيل ، حتى إذا ظهر الأجانب فى الحبشة على شكل واسع أيام الإمبراطور منليك الثانى فى أواخر القرن الماضى قابلوهم بكل حذر وخوف ولم تنجح محاولات الكثيرين لنزع هذا الشعور منهم حتى الآن.

ولقد وجد البرتغاليون الكاثوليك فى الملك « سوسنيوس » ملك سجد الثالث (١٦٠٧ — ١٦٣٢) أكبر عون لهم على تنفيذ ما خيل إليهم أنه السياسة البرتغالية الكاثوليكية فى الحبشة ، حين تصور الإمبراطور أن الكاثوليكية هى العامل الوحيد الذى يستطيع أن يخرج بلاده من عزلتها ويصلها بالعالم الخارجى المتمدين اتصالا ذا منفعة لها ، وقد يكون اتصالا دينياً فى أول أمره . ولكنه لن يقف مستقبلا عند حد الدين ، فقد يكون اتصالا ثقافياً بعد ذلك تستطيع الحبشة أن تجنى منه مالم تجنه فى تاريخها الماضى الطويل من سبق فى مضمار الحضارة ، وقد يكون اتصالا اقتصادياً تستطيع الحبشة أن تصرف به حاصلاتها التى تراكمت فى حيزها المحدود ، وعملت طبيعة البلاد القاسية على أن تحتجزه متراكما داخلها بعضه فوق بعض دون فائدة للأهالى سوى إضعاف المستوى الاقتصادى للبلاد . وقد يكون اتصالا اجتماعياً يؤدى إلى هجرة الأجانب إلى الحبشة واختلاطهم بأهاليها الذين طالت عزلتهم ، ومن يدرى ما يؤدى إليه هذا الاختلاط فيما بعد من نتائج لايستطيع الفكر أن يقف عند حدودها المرسومة فى هذا الوقت من التاريخ .

ولذا يعد الملك « سوسنيوس » من الملوك القلائل الذين اعتلوا عرش الحبشة وظهروا ظهوراً واضحاً ، فكان ملكاً عالماً مطلعاً حر الفكر بذل كل ما يملكه من مواهب لخير أمته من الناحية الحربية والسياسية والاجتماعية والدينية والصناعية والتجارية .

وإذا كان قد أخطأ السبيل فان يعيبه ذلك فى شىء ، فقد اعتنق الملك الواسع الأفق فكرة عمل على تحقيقها وبذل نفسه فى سبيلها . ولا نستطيع أن نلقى عليه اللوم فى ذلك فلم تكن الظروف لتساعد إلا على قيام هذه الفكرة . فقد خلص هؤلاء البرتغاليون بلاده من مأزق لم يكن يتردد أحد فى أن يحكم أنه كان قاضياً عليها

لولا تدخلهم . كما أنه رأى بعين الرجل العالم المتدين ما عليه أخلاق اليسوعيين ومقدرتهم ؛ وما هم عليه من معرفة وعلم وتفوق ذهنى وتقشف ونكران للذات ، وقارنها بما عليه الوطنيون من جهل ونقص روحى فاضح فقد وجد فى « بايز » البطريرك الكاثوليكى رجلا متعمقاً فى دراسة الدين استخدم جسمه وعقله فى جميع الأوقات لنشر مذهبه ، فكان فى صومه وتعبده كالعامل اليدوى فى شدته على نفسه وقسوته .

كان يشرف بنفسه على كل ما صغر فى بناء الكنائس والأديرة أثناء التسع عشرة سنة التى أقامها فى الحبشة ، حتى أرغم أعداءه على احترامه وحبه ، وقارنها بمعيشة الأنبا « سمعان » ، المطران المصرى الذى ملأ كل إنسان بالاحتقار له ، فقد عاش متهتكا مع زوجة أحد المصريين ، كما احتفظ بحريم من الوطنيات ، ولما ولدت له إحداهن ولداً رمى به للضباع .

وأدرك الإمبراطور « سوسنيوس » أن علاقة الحبشة بالدول الأجنبية مسألة حياة أو موت بالنسبة للحبشة ، فما عليه إلا أن يختار أى هذه الدول ليلقى بنفسه بين أحضانها .

فها هى تركيا تقف له على الساحل لتسد عليه المسالك إلى العالم الخارجى . وقد حاولت قبل ذلك أن تهدم هذه الإمبراطورية المسيحية لتقيم أخرى إسلامية على أنقاضها . وها هى ذى مصر ذات العلاقات التقليدية الروحية لاتستطيع له ولا لنفسها نفعاً ولا ضراً . وها هم البرتغاليون قد أفلحوا فى كسر الخطر التركى الإسلامى ويستطيعون مستقبلا أن يكونوا ذوى منفعة له سواء حربية أو دينية أو اقتصادية . ففكر واستقر إلى أن يلقى ببلاده إلى أيدى هؤلاء .

فاعتنق المذهب الكاثوليكى سراً ولم يلبث أن جاهر « بايز » بهذا الاعتناق سنة (١٦٢١) وأعلن تصميمه على فصم الرابطة بينه وبين الكنيسة المصرية . وإذا ما انتصر سنة (١٦٢٢) على ثورة « ملكا كرستوس » فى « بيجامدر » عدّ ذلك فألا من الله بالجهر بمذهبه ، فذهب إلى « أكسوم » مع ابنيه « فاسيلاداس ومرقص » ، ومع أخيه الثانى ورجال دولته وأعلن هناك انفصاله عن المذهب السكندرى ، وأصدر مرسوماً بذلك إلى رعيته ختمه ببيان شامل لمخازى الأب « سمعان » ، وقال : إنها كانت أكبر دافع له لأن ينفصل عن الكنيسة المصرية .

ومن الطبيعى أن يثير ذلك حنق رجال الكنيسة الوطنية فتلفتوا يبحثون عن أعداء الإمبراطور يدفعون بهم إلى الثورة . ومن الطبيعى كذلك أن يتخذ هؤلاء الأعداء من رجال الدين الوطنيين ، وعلى رأسهم الانبا « سمعان » تكأة ليبرروا بها ثوراتهم أمام الأهالى المتمسكين بعقيدتهم الكارهين لكل تحول عنها . فقد رأوا فى البابا ملكاً أجنبياً وفى إمبراطورهم تابعاً له وراوا أنفسهم قد أصبحوا غير مرتبطين بيمين الولاء الذى سبق فأقسموه له . وكرهوه كما كرهوا اليسوعيين الذين حطموا حياتهم الاجتماعية وعاداتهم الموروثة . واتخذ شعورهم هذا شكل ثورات اشتعلت فى كل أنحاء الامبراطورية .

فقد قام أخوه « يمانا كرستوس » وزوج ابنته « يوليوس » وحاولا أكثر من مرة قتله ، كما ثار « جبرييل » ابن « ملك سجد » .

وإذا ما قام « عمدا صيون » ودعا نفسه « يعقوب » ابن « ملك سجد » وطالب بالعرش نصره الناس والتفوا حوله . وإذا ما انتصر عليه الجيش الامبراطورى وحاول حمله إلى الملك هجم عليهم جنود « جديون » ملك « الفلاشا » وخلصوه من أيديهم ليجعلوا منه قائداً لجيش جديد ، هجم على القرى واستطاع أن يهزم الجيش الامبراطورى أكثر من مرة حتى وجد الامبراطور نفسه مضطراً لأن يسير إليه بنفسه ولم يتردد فى محاربته حتى قضى على ذلك .

ولكن استطاعة هذا الثائر جمع هذا الجيش الضخم أكثر من مرة والتفاف الأهالى حوله أكثر من مرة يدلنا على مقدار استعداد الشعب لمناصرة كل غاضب على الامبراطور .

وفى وسط هذا الاضطراب الشامل والثورات القوية المتعاقبة فقد الملك أهم مستشاريه وأعظمهم قوة وأنفذهم بصيرة وأحكمهم رأياً هو « بايز » البطريرك الكاثوليكى .

وعين خلفاً له الأب « منديز » فوصل إلى البلاد فى سنة (١٦٢٥) ومعه بعض اليسوعيين . وكان الأتراك على الساحل قد عملوا على تعويق وصولهم إلى الداخل ، وكان هذا الرجل — لسوء حظ الامبراطور — ضيق الفكر غير متسامح فى معاملة الأحباش ، فبدلا من أن يداهنهم ولو لفترة قصيرة عمد منذ اللحظة الأولى إلى

استئصال المذهب السكندرى ، فنزع من الكنائس جميع الشارات التى تدل على هذا المذهب ، وجعل « سوسنيوس » وأولاده وموظفيه وكهنته يعترفون من جديد بالمذهب الكاثوليكى فى فبراير سنة (١٦٢٦) ويقسمون على الإنجيل أن يطيعوا قداسة البابا ، كما سام الكهنة ودشن الكنائس وعمد الاهالى للمرة الثانية ونظم الصيامات والاعياد طبقاً للتقويم الجريجورى .

وقد تم ذلك كله بسرعة حالت دون أن يهضمها الشعب . وإذا ما فشل فى انتهاج هذه السياسة عول ومعه الامبراطور على أن يسلكا معاً سبيل القوة ، فدفعه إلى أن يبدأ سلسلة من الاضطهادات ضد هؤلاء الذين أبوا إلا أن يتمسكوا بمذهبهم ، وذهب الامبراطور فى ذلك بعيداً إلى حد أن قطع لسان أخيه « كنفرا كرستوس » وجلد موظفاً كبيراً هو « بوكو » ليجعلهما يعلنان اعتناقهما للمذهب الكاثوليكى . ففضل كثير من رجال الدين الوطنيين الموت على أن يتحولوا عن مذهبهم .

ولعل أعنف الثورات التى قامت ضد الدولة هى التى قادها أخوه « ملكا كرستوس » .

فقد جمع جيشاً كبيراً وتحصن فى « لاستا » . وإذا ما جمع الملك جيشه وعول على السير إلى عدوه ، وعلى رأس جيشه ابنه « فاسيلاداس » وجد من هذا الجيش تهاوناً وتخاذلا خاف أن يؤديا به إلى الهزيمة . وهنا أطلعه ابنه على سبب هذا التخاذل وهو أن الجيش الامبراطورى المخلص مستعد إلى أن يسير معه إلى أقصى الأرض ، ولكنه لم يفعل ذلك قبل أن يرد إليهم الامبراطور مذهبهم القديم ، فلم يملك الملك إلا أن يعدهم بذلك إذا انتصر .

ولقد كان لهذا الوعد أثره فهجم الجيش وتمانى فى الهجوم حتى شتت الأعداء بعد أن قتل منهم ثمانية آلاف .

وفى اليوم الثانى ذهب الملك ليشهد آثار المعركة ، وهناك لقيه ولده وقائد جيشه « فاسيلاداس » وقال له : « هؤلاء القتلى ليسوا بوثنيين لنفرح بالتغلب عليهم ولكنهم مسيحيون وأخوة لنا وبعضهم أقاربنا . فنحن لم نكسب عليهم نصراً لأننا أغمدنا سيوفنا فى قلوبنا . انظر كم قتلت وكم ستقتل لاجل أننا تركنا مذهب آبائنا . فلم يلبث الملك أن تبين صدق مقال ولده فقد أمعن فى قتل الأحباش المسيحيين بينما

انتهزت الفرصة قبائل الجالا غير المسيحية لتقوى وتتسع ، وهم أعداء كل من المذهبين المسيحيين . فلم يكد يعود الامبراطور إلى « دنكز » حتى أعلن مرسوماً رد به إلى شعبه مذهبه وطقوسه ، كما أعلن ابنه « فاسيلاداس » خلفاً له واعتزل هو فى دير ليعيش عيشة هادئة حيث مات بعد مرض قصير .

وكان « فاسيلاداس » مثلا لولى العهد المخلص لأبيه برغم أنه كان يؤمن فى نفسه بالمذهب الأرثوذكسى ويكره التحول عنه ، إلا أنه وقف بجانب أبيه وناصره فى كل خطوة من خطواته ، فأقسم معه يمين الولاء للبابا كما وقف إلى جانبه فى كل حروبه التى شنها على الثائرين من رعيته . حتى استطاع بفضل ما اكتسب من ثقة أبيه أن يوقفه على خطئه فى محاولة تغيير عقيدة هذا الشعب المحافظ دون أن يكون مستعداً له فلم يكن من « سوسنيوس » إلا أن أدرك إخلاص ولده وشعر بالهوة التى كاد يدفع إليها شعبه ، فنزل عن العرش مختاراً لولده ومنحه تعضيده أثناء السنين الاولى من حكمه ، وبذلك برهن على أنه الرجل الذى لا يتردد عن التضحية بذاته فى سبيل أمته .

وإن الظروف التى أحاطت بتولية « فاسيلادس » العرش الحبشى اتعطينا صورة واضحة عن الخطوط التى سارت عليها السياسة الحبشية بعد ذلك . ولابد أن نشير قبل أن ندخل فى تفاصيل هذه السياسة إلى أن الذين حاولوا كتابة تاريخ هذه الفترة كانوا تحت تأثير عوامل ، ولو أنها مختلفة إلا أنها أدت إلى نتيجة واحدة . فالمؤرخ الوطنى مسوق بإعجابه بهذا الملك الذى رد إلى الأحباش ديانتهم ، والمؤرخ الأجنبى — أقصد البرتغالى — متأثر بكراهيته لهذا الملك الذى عمل على التخلص من البرتغاليين والأجانب ومعنى ذلك أن ما كتب عن تاريخ هذا الملك كان بعيداً عن الإنصاف .

ولقد صور المؤرخ الوطنى الإمبراطور « فاسيلاداس » بمظهر المحارب الشجاع الكفء الذى يتصف بكثير من الصفات المشرفة ، بينما حرص البرتغاليون على إظهاره بمظهر الوحش القاسى المتعطش للدماء ، حتى لقد قالوا عنه : إنه لم يكد يعتلى العرش حتى قتل بالسلاح والسم إخوته الخمس والعشرين .

عمل « فاسيلاداس » منذ أن اعتلى العرش على إعادة الهدوء إلى شعبه ، فكتب

إلى البطريرك « منديز » يأمره وقساوسته من اليسوعيين أن يجتمعوا فى « كرمونا » بالقرب من « أكسوم » فى انتظار ما يأمر به ، ثم نصحه بأن يترك البلاد ليخلى مكانه للمطران المصرى الذى بعث فى طلبه ، فخضع للأمر ولكنه فى نفس الوقت أخذ يتصل بمن رأى أنه يستطيع أن ينصره على الملك مثل « سهلا كرستوس » عم الملك الذى صور له أنه يستطيع أن يكتب إلى ملك اسبانيا ليرسل إليه جيشاً لنصرته . وإذا ما فشلت هذه المحاولة اتصل بالبحر نجاش « يوحنس » ودفعه إلى الثورة ومناه بالمساعدة كذلك . وإذا ما فشلت هذه المحاولة أيضاً حاول ومن معه من اليسوعيين أن يختبئوا فى البلاد أثناء سيرهم إلى مصوع ليحاولوا الاتصال من جديد بمن يروا الإستفادة منه . ولكن فشلت كل هذه المحاولات رغم تكررها ووصل « منديز » ومن معه إلى مصوع ، وبعثوا إلى من نقلهم إلى سواكن حيث افتدوا بالمال .

وقد وصلت أخبار طرد « فاسيلاداس » للبرتغاليين إلى أوربا فقوبلت بالأسف من كثيرين ، وإن أعذره كثيرون آخرون لما اشتهر عن اليسوعيين من العناد والتكبر ومحاولة القبض على السلطة الزمنية . ففكرت هيئات أخرى أن ترسل مبشرين غير يسوعيين قد يستقبلهم « فاسيلاداس » ويعاملهم بأحسن مما عامل اليسوعيين ، ولكن قتل عدد منهم بواسطة الجالا قبل أن يدخلوا إلى الحبشة . ولم يكن نصيب من نجح فى الوصول إلى الداخل بأفضل من حظ زملائهم .

ولم يكتف « فاسيلاداس » بطرد الكاثوليك ، بل عمد إلى حرق الكتب التى تركوها ، وعمل على تدمير كل أثر لهم فى البلاد ، وإن الكاتب المنصف ليستطيع أن ينتقد الملك على هذا العمل ، إلا أنه لا يملك إلا أن يقول إنه إنما أراد بكل ما فعل إعادة الهدوء إلى شعبه الذى قاسى كثيراً من الاضطراب وعدم الاستقرار تحت حكم أبيه ، كما أننا لا نستطيع أن نحكم على عمل عُمل فى القرن السابع عشر بعقلية القرن العشرين .

وناحية أخرى من سياسة « فاسيلاداس » لا نستطيع أن نغفلها بل يجب علينا أن نحلها محلها من التقدير ، وهو أنه أدرك كما أدرك ذلك أبوه من قبل وكما أدركه ذلك غيره من الأباطرة العظام الذين تولوا العرش الحبشى — مثل جلاوديوس ، ولبنادنجل ، وزرأ يعقوب ، وداود — أن عزلة الحبشة داخل كتلتها الجبلية لتكفى

نفسها بما تنتجه أرضها من موارد محدودة ، ثم إغلاقه النوافذ وصم الآذان عن كل ما يجرى فى العالم سياسة خاطئة لن تعود على الحبشة إلا بالوبال والضرر .

ولكنها لن تستطيع الاتصال بالبرتغال ، فقد خربوا البلاد فى عهد أبيه ولم تر الحبشة منهم خيراً فى المدة الأخيرة ، كما أنهم جادون فى نشر مذهبهم ولم يترددوا فى احتضان أعداء الملك إذا وجدوا فى ذلك مايساعدهم على تنفيذ سياستهم ، فقدعاش الملك طول حياته فى خوف من غزوهم مما جعله يرسل الرسل إلى موانى « مصوع » و « سواكن » بل إلى « مخا » ، والحديدة » ليوافوه بأخبار هذه الغزوة إذا حدثت ، بوقت كاف .

والأتراك يقيمون على الساحل يمنعون الحبشة من أن تطل على العالم الخارجى ، ولا يستطيع أحد أن ينسى محاولتهم السيطرة على البلاد عن طريق الإمام أحمد ابن ابراهيم ، وإذا مال إليهم وأخذ جانبهم فلهم من القوة ما يستطيعون به أن يملوا إرادتهم على الامبراطور إذا أرادوا ، فهم يستطيعون أن يعيدوا محاولتهم السيطرة على الحبشة مرة أخرى .

والأسبان أصحاب أسطول قوى يمخر عباب المحيط الأطلسى ويمتلك الدنيا الجديدة ، إلا أنهم لايعنون بهذا الجزء من العالم حيث الحبشة . كما أن اليسوعيين حاولوا أن يكتبوا إليهم ليأتوا لنجدتهم ضد الامبراطور ، وتعصب الأسبان للمذهب الكاثوليكى أمر معروف ، فلن تكون نتيجة التحالف معهم إلا تكراراً لمحاولة التحالف مع البرتغال .

أما مصر فخاضعة للحكم التركى ، فالعلاقة الدينية معها فيها الكفاية . فأرسل إليها يطلب وصل ما انقطع وعودة المياه إلى مجاريها وتعيين مطران مصرى .

فحاول « فاسيلاداس » فتح باب المفاوضات مع سلطان « عدن » ولكن عندما هزم الجيش الامبراطورى فى « جانيش » انتهز هذا الصديق الفرصة ليغزو المقاطعات الساحلية فى الحبشة ويستولى على عدة حصون فيها ، فكان ذلك ضربة قاسية لفاسيلاداس .

فلم يبق إلا اليمن ، ومع أنها صغيرة الا أنها أقرب الدول الى الحبشة ، وعلاقتها

بها قديمة ، كما أنها على صغرها وضآلة شأنها قد استطاعت أخيراً أن تطرد الجيش التركى وتخرج عن سلطة الإمبراطورية التركية الضخمة . الأمر الذى لم تستطعه مصر أو الحجاز أو أى جزء آخر من أملاكها .

ولكن هذه الدولة — اليمن — لن تكون الدولة التى تستطيع أن تفيد الحبشة أو تستفيد من الحبشة تجارياً ، فهى محدودة المطالب علاوة على تأخرها فى سبق الحضارة ، وهى لن تكون الدولة التى تستطيع أن تقف أمام البرتغال أو أية دولة أخرى فى ميدان السبق الحربى . فليس هناك من مدخل يستطيع به أن ينفذ إلى صداقة اليمن إلا مدخل الدين . فأرسل اليها يبلغها رغبته فى فهم الدين الإسلامى لعل الله يهديه الى اعتناقه .

ولقد وصلت أخبار هذه الاتصالات الى اليسوعيين والبرتغال الموجودين فى البلاد فاتخذوها مادة للحملة على الإمبراطور ، ولكن كثرة مبالغتهم فى تشويه كل حركة تصدر من « فاسيلاداس » وشدة كراهيتهم له دعت الى عدم تصديق هذا الامر على الرغم من صحته . وأجابت اليمن الدعوة فأرسلت اليه من يفقهه فى أمر الدين الإسلامى ، الامر الذى هو موضوع هذا الكتاب .

٧ – علاقة الحبشة باليمن

وعلاقة الحبشة باليمن قديمة موغلة فى القدم . ولا غرابة فى ذلك فهما تواجهان بعضهما ولا يفصل بينهما الا البحر الاحمر الهادىء الضيق ، والذى يضيق ويمعن فى الضيق كلما اتجه جنوباً حتى ليكاد شاطئاه يلتقيان . فقيام علاقات بينهما أمر طبيعى ، وهجرة اليمنيين الى الحبشة والأحباش الى اليمن أمر طبيعى كذلك . فاليمن بلد زراعى يحتاج الى الأيدى العاملة الرخيصة ، ولن تجد هذه الأيدى إلا فى رقيق الحبشة ولذا أينعت تجارة الرقيق منذ أقدم الأزمنة ، واشترك فى هذه التجارة وأقامها وعمل على انتشارها التجار اليمنيون الذين اتخذوا من ساحل الحبشة الشرقى موطناً لهم منذ القدم حتى إذا زرت السواحل الشرقية للحبشة فى الوقت الحاضر فلن تجد التجار الذين قبضوا على ناصية التجارة وكونوا لهم المراكز التجارية والبيوت التجارية الناجحة إلا يمنيين أوحضارمة. وتعود الاساطير الحبشية بهذه العلاقة الى أيام ممعنة فى القدم أيضاً، فهى تقول : إن ملكتهم « ماكيدا » التى زارت سليمان الحكيم ملك بيت المقدس كانت تحكم الحبشة واليمن اللتين كانتا تكونان مملكة عظيمة تسامع عنها الناس فى جميع أنحاء العالم . واذا عرفنا الاحترام الكبير الذى يكنه الاحباش لهذه الملكة العظيمة . وكيف يتخذون حكمها مبدأ لتاريخهم ، وزيارتها لسليمان الحكيم وانجابها منه ولداً — هو ابن الحكيم « منيليك » أساساً لملكهم — أمكننا أن نعرف مقدار الرابطة الوثيقة التى كانت تربط الحبشة واليمن منذ القدم ؛ فقد كانت هذه الملكة فائقة الجمال والحكمة أعطاها الله الإلهام لتقوم بزيارة سليمان لتتزود من حكمته ، وما كانت لتقوم بهذه الزيارة إلا استجابة لهذا الإلهام . كما كانت واسعة الثروة والجاه تملك الكثير من الذهب والفضة والعدد الهائل من الجمال والعبيد الذين يعملون بإرشادها وتحت إمرتها فى نقل التجارة الى الهند وأسوان .

وكان هناك تاجر كبير يدعى « تمارين » أو « ثمر الدين » يملك خمسمائة وعشرين جملا وثلاثمائة وسبعين سفينة . وعندما سمع سليمان به أرسل اليه من يدعوه ليحمل له بعضاً من تجارة الجزيرة العربية من الذهب الاحمر والخشب الاحمر ، الذى يعز على السوس . فلبى التاجر الرسالة وذهب الى هناك واشترى منه الملك كل ما عرضه عليه من ثمين العروض وأجزل له فى العطاء . وكان من الطبيعى أن يمكث « ثمر الدين »

فى بيت المقدس بضعة أيام حيث شاهد عظمة سليمان وسمع حكمته وأعجب بها ، كما أعجب بطريقة حكمه لشعبه وحب شعبه له . حتى إذا عاد التاجر إلى ملكته «ماكيدا» فى الجنوب أخذ يقص عليها بعض ما شاهده وما أعجب به من حكمة سليمان الذى كانت كلماته كالماء للعطشان والخبز للجائع والدواء للمريض والكساء للعارى ، كما قص عليها أمر هيكله فى بيت المقدس وكيف كان يستخدم فى بنائه سبعمائة نجار وثمانمائة بناء ، حتى جعلوه تحفة تروق العين رؤيتها ، ولا تكاد تسأم التطلع إليه . فأخذت الملكة تستمع اليه فى سأم أولا ثم لم تلبث أن مالت إلى حديثه وأنصتت اليه . وتطور الحال إلى أن صارت تسأله عن الملك وتلح فى السؤال ، فأعجبت به أيضاً وازداد إعجابها وزرع الله فى قلبها الرغبة إلى أن تذهب إلى بيت المقدس لترى هذا الملك العظيم ولتتزود من حكمته . ولم يكن يثنيها ما تعرفه عن طول الرحلة ومشاقها وتعرض المسافر لأخطار الطريق من حر وبرد وقاطع طريق ، ولم تلبث أن أعلنت رغبتها إلى شعبها فوافقها على ما تريد . فأمرت « ثمر الدين » أن يقوم بأمر الرحلة فأعد سبعمائة وسبعة وتسعين جملا وعدداً لا يحصى من الجمال والحمير والبغال ، وبدأت الملكة ذات الجاه رحلتها الخطيرة محوطة بكل أسباب العظمة والفخامة .

وإذا ما وصلت إلى هناك استقبلها الملك العظيم وأحاطها بجميع أسباب الترحيب وأفرد لها جناحاً خاصاً فى قصره ، وأمر خدمه وطهاته أن يقوموا بخدمتها وأن يجهزوا لها ولقافلتها الكبيرة كل ما تحتاجه من أسباب الراحة حتى لا تشعر بألم الاغتراب . وخصص لها فرقة مكونة من خمس وعشرين مغنية وخمس وعشرين راقصة لتقدم لها من ألوان التسلية ما يروح عن نفسها . وزارها سليمان كثيراً فى جناحها وأكثر من هذه الزيارة ، لما كان يحسه من متعة الجلوس اليها والاستماع إلى حديثها ، كما جلست هى اليه واستمعت إلى حديثه وشكرت الله الذى هداها إلى أن تقوم بهذه الزيارة لتسمع حديثه وتمتلىء من حكمته ، وعندما زارت هيكله رأته كيف كان يقوم بإرشاد جميع العمال إلى أعمالهم ، ولمست كيف تشعب علمه وشمل جميع أنواع الفنون كما اكتشفت أنه كان يعرف لغات الحيوان والطير وأنه كان يملك قوى يسيطر بها على الأرواح والشياطين التى كانت تأتمر بأمره ، وكل ذلك أعطاه إياه الإله لأنه لم يكن يبغى الشهرة أو الانتصار فى الحرب أو الثروة بل الحكمة والحكمة وحدها .

وعلى قدر ما جلست « ماكيدا » اليه واستمعت اليه على قدر ما امتلأت من حكمته ونزلت كلماته إلى قلبها ، وأخيراً وجدت فى نفسها الجرأة لأن تكلمه عن ديانتها إذ أنها كانت هى وشعبها يعبدان الشمس ، وأنها سمعت عن إله إسرائيل وعن تابوت العهد وعن لوح موسى النبى . فشرح لها سليمان قوة الله العلى الخالق لكل شىء المبدع لكل شىء ، فسرعان ما تنكرت لديانتها واعترفت بقوة الله الأحد خالق السماء والأرض وأمضت « ماكيدا » ستة أشهر فى هذه الضيافة زارت أثناءها سليمان كثيراً فى قصره وزارها سليمان فى جناحها . زاد فى أثنائها علمها بهذه الديانة الجديدة . وأخيراً أرسلت الى الملك من ينبئه برغبتها فى العودة الى مملكتها . ولو أنها تود أن تمكث أكثر من ذلك لتمتلىء من بحر حكمته . فلم يكد سليمان يلم بهذه الرغبة حتى امتلأ حزناً وراودته فكرة الزواج بهذه الملكة الجميلة الممتلئة بالحكمة ، فأرسل اليها يقول انها انتوت العودة دون أن ترى طريقة حياته فى قصره . ودعاها لأن تقيم معه فى هذا القصر لتتم حكمتها . فلبت « ماكيدا » الدعوة وانتقلت الى هناك حيث هىء لها مكاناً تستطيع أن ترقب منه ما يجرى فى القصر دون أن تزعج أحداً أو يزعجها أحد . وكانت غرفتها مزينة بأبهج وأجمل وأغلى ما عرفه العالم من الجواهر الكريمة والطنافس الفاخرة والستائر الثمينة ، كما كان الهواء معطراً بالعطور والبخور وزيت المر ، وكان الطعام يحمـــل اليها محتوياً كل ما حوته الدنيا من أطايب الطعام والشراب ، مما جعلها تقبل عليه بنهم كبير . وزاد فى اقبالها عليه ما كانت تحويه المائدة من النبيذ الفاخر والأفاويه التى تفتح الشهية وتزيد العطش الذى لا يطفأ الا بالإقبال مرة أخرى على الطعام والشراب . وغالباً ما كان يشاركها الطعام ويمعن فى اكرامها .

وذات ليلة بعد أن فرغوا من الطعام لاحظ سليمان ثقل جفونها من فرط ما أكلت وشربت . فأشار عليها أن تستريح حيث هى حتى الصباح . فصادف هذا الاقتراح هوى فى نفسها وخضعت له ، ولكن بعد أن أخذت عليه عهداً وجعلته يقسم بإله إسرائيل أن لا يغتصبها بالقوة فإن ذلك يجعلها تعود أدراجها مسربلة بالحزن والخزى والعار ، فأجابها سليمان أنه يقسم لها أن لا يغتصبها بالقوة إذا أقسمت له هى بدورها أنها لا تأخذ بالقوة أيضاً أى شىء مما فى قصره . فضحكت الملكة منه قائلة ما بال الرجل الحكيم يتكلم كغير الحكماء . ألصة هى لتسرق منه مالا يود إعطاءه

إياها ؟ وهل يتصور أنها أتت من بلادها يسوقها إله حب الثروة أو المال ، فبلادها غنية مليئة بكل مايسر الاعين وتشتهيه النفس . إنها ما أتت إليه وما تجشمت كل هذه المصاعب والمتاعب إلا لتسمع من حكمته ، فما بالها تتركه الآن . فأجابها إنه لا يأخذ منها قسما إلا مقابل قسمه . فما دامت تصر هى على أن يقسم لها فلتقسم هى أيضاً ، كى لا يكون أحدهما مغبوناً فى الصفقة . وهو مستعد لأن يعفيها من قسمها إذا أعفته من قسمه . فتبادلا القسم وهما يضحكان . وحينئذ جهز الخدم لسليمان سريراً فى ناحية من الحجرة وآخر لماكيدا فى الناحية الأخرى ، وأمر سليمان خدمه باللسان العبرى برفع الماء من كل القصر إلا بجوار سريره وأن يغلقوا الابواب . وذهب كل منهما إلى سريره واستغرقت الملكة فى النوم بينما تظاهر الملك به وظـــل مستيقظاً . وإذا ما انتصف الليل استيقظت الملكة وشفتاها تكادان تلتهبان من الجفاف والعطش وحلقها يكاد يتحجر ، ورغم كل المحاولات التى فعلتها من ابتلاع ريقها وتحريك لسانها وامتصاص شفتيها فإنها لم تنجح فى ترطيب حلقها بعض الشىء . فلم يكن أمامها إلا أن تبرح سريرها بحثاً عن الماء بعد أن أمضت بعض الوقت فى مراقبة الملك مخافة أن يكون يقظاناً . فاسترقت الخطا بكل سكون إلى حيث الماء وما كادت تمد يدها إليه حتى استيقظ الملك وأمسك بيدها وقال : لماذا أبحت لنفسك أن تتخلى عن قسمك الآن لتغتصبى بعض ما أملك ؟ ولشدة خوفها سألته : وهل فى شرب الماء تحلل من هذا القسم ؟ فأجابها . أتعلمين فى الدنيا شيئاً أثمن من الماء ، فلم تجد الملكة بداً وقد أحلت نفسها من القسم ، أن تحله من قسمه .

وبعد هذا الاتحاد رأى سليمان فى حلم شمساً ساطعة ظهرت من السماء وسارت حيث وصلت إلى أثيوبيا واستقرت هناك ، فسبب له هذا الحلم اضطراباً كبيراً .

وأخيراً استأذنت « ماكيدا » فى العودة إلى شعبها فأذن لها بعد طول تردد وأعطاها هدايا كثيرة وستة آلاف جمل لقطع الصحراء وسفينة لعبور البحر وأخرى لتسافر بها فى الهواء . وكان سليمان قد صنعها بإرشاد من الله . وودعها بعد أن أعطاها الخاتم الذى فى إصبعه كى لا تنساه . وأوصاها أن ترسل إليه ابنه يوماً ومعه هذا الخاتم ليكون علامة له .

وسارت القافلة عائدة إلى الحبشة حتى إذا وصلت إلى مكان يدعى « بالأزادى ساريا » أتتها آلام المخاض وولدت طفلا ذكراً .

وعندما أتمت أيام طهرها استأنفت رحلتها وعادت إلى شعبها الذى استقبلها بكل مظاهر الفرح والسرور ، وقدم لها الأمراء وأعيان البلاد الهدايا من الذهب والفضة والأثواب من المخمل والحرير .

وإن ما أشارت إليه القصة من إعطاء سليمان لها سفينة يقصد بها الأحباش ولا شك أن بلاد هذه الملكة تقع فيما وراء البحر ولا يمكن الوصول إليها إلا بعد عبوره .

وهذه القصة التى يؤمن بها الأحباش إيماناً لا يتطرق إليه أى شك ، والتى على أساسها تنتمى الأسرة الحاكمة فى الحبشة إلى الآن : إلى سليمان بن داود وتسمى نفسها بالسليمانية ، ولقب الامبراطور « الأسد الخارج من سبط يهوذا » .

وتروى هذه القصة على صورة أخرى وقد عرفت بها فى مقاطعة تيجرى بالحبشة تقول بأن الملكة كانت تدعى : « آطي آزب » أى ملكة الجنوب ، وأنها كانت من « تيجرى » حيث كان الناس يعبدون الحية . وكان من عادة الناس أن يقدموا إليها كل عام بكراً وثلاثمائة رطل من اللبن . فلما جاء دور « آطي آزب » هـــذه اتربط فى الشجرة انتظاراً للحية ظهر القديسون وأنقذوها منها بعد أن قتلوا الحية ، ولكن نقطة من دمها تناثرت فسقطت على قدمها فتحولت قدمها إلى حافر حمار . وفى الصباح أطلق القديسون عقالها فذهبت إلى قومها وقصت عليهم قصتها وقادتهم إلى حيث توجد الحية المجندلة فأقاموها ملكة عليهم . وعندما سمعت عن حكمة سليمان رغبت فى السعى إليه لتسمع من حكمته ولترجوه أن يعيد قدمها إلى حيث كانت . فتنكرت وخادمتها فى زى غلامين وسافرتا إلى هناك ، فما اقتربتا من باب القصر حتى عادت قدمها إلى ما كانت عليه . وعند ما مثلا بين يديه أمر لهما بالغداء والشراب ولكنه اشتبه فى أن يكون هذان الرجلان فتاتين ، وفى المساء أمر الملك بتجهيز فراشين للضيفين فى غرفته ، وتظاهر الملك بالنوم وهو يرقب ضيفيه بعيون يرى منهما بصيصا ، فانتهزت الفتاتان فرصة نومه ليقوما ويلعقا العسل . فقبض عليهما واغتصبهما وأعطى لكل منهما حقاً من الفضة وخاتماً وقال لهما : إن كان نتاجكما بنتاً فأعيداهما إلىّ ومعهما الحق ، وأما إذا كانا ولدين فليكن معهما الخاتم . وعندما عادت الفتاتان إلى وطنهما أنجبت كل منهما ولدا .

ويقص علينا القرآن الكريم هذه القصة فى سورة النمل ومنها نعرف أن ملكة سبأ اعتنقت

الإسلام ، ويدعو الكتاب المسلمون هذه الملكة « بلقيس » ويجعلونها ابنة للهدهد ابن شرحبيل — أو شرحبيل بن مالك — من نسل يعرب بن قحطان . ويجعلونها الحاكمة الثانية والعشرين لليمن ، وأن سليمان أرسل إليها على أجنحة الطير رسالة مضمخة بالطيب يدعوها فيها الى تسليم نفسها إليه لاعتناق الإسلام . وسافرت اليه فى قافلة قوامها خمسمائة فتى وخمسمائة فتاة حملت معها خمسمائة قالب من الذهب وتاجاً مرصعاً باللؤلؤ والياقوت وكمية كبيرة من المسك والعنبر ، ولكنها ألبست الفتيان ملابس النساء والفتيات ملابس الرجال . فاستقبلها سليمان فى فناء معبد حوائطه من قوالب الذهب والفضة ، وعند ما أرادت الملكة أن تقترب من العرش سارت على أرض من الزجاج تحتها ماء جار خالت نفسها معه سائرة على الماء فرفعت طرف ثوبها فكشفت عن قدمها الذى يشبه حافر الحمار . فقدمت الملكة نفسها الى سليمان الذى أراد أن يتزوجها ولكنه تردد أمام حالة قدمها . ولكنه لم يلبث بقليل من أعمال السحر الذى كان يتقنه أن يعيد قدمها إلى ما كانت عليه ويزفها الى نفسه .

وسواء كانت هذه الملكة تحكم الحبشة — على ما تقول الأساطير الحبشية — أو تحكم اليمن — على ما تقول المصادر العربية — فهى تدل على وجود علاقة ممعنة فى القدم بين الحبشة واليمن .

وتستطرد القصة لتدلل أن جميع ملوك الحبشة بعد ذلك يعودون فى أصلهم إلى ابن « ماكيدا » هذه من سليمان فتقول : إنه حينما بلغ ابن الملكة الثانية عشرة من عمره سأل أصحابه عن أبيه فأخبروه أنه سليمان . فلم يلبث أن سأل أمه فأنبأته به أيضاً ، ولكنها أخبرته أن مملكة هذا الملك بعيدة والوصول إليها صعب عسير . ولكن بعد عشر سنوات عندما اشتد عوده وأتقن فنون الحرب والفروسية وصيد حيوان البر والبحر أعلن لأمه رغبته فى أن يرحل ليرى أباه . فاستدعت الملكة « تمر الدين » إلى حضرتها وأمرته أن يجهز قافلة تحمل ابنها إلى بيت المقدس ولتعود به سالماً ، وأعطت الملكة ولدها الخاتم الذى كانت قد أخذته من سليمان كى لا يشك الملك فى أنه ابنه .

وانطلق ابن الحكيم (وهذا اسمه) فى رحلته حتى وصل إلى حدود فلسطين حيث عرفه الناس من ملامحه أنه ابن سيدهم ، وحملوا الأخبار إليه أن تاجراً وصل إلى بلادهم وأنه صورة حية منه ، فأرسل الملك إليه من يستحثه السير ، وعند ما أدخلوه

عليه عرفه الملك لتوه وقبله فى جبهته وفمه وبين عينيه وأكرمه غاية الإكرام وأهدى إليه حزاماً من الذهب ووضع تاجاً على مفرقيه وخاتماً فى إصبعه وأجلسه معه على العرش وجعله مساوياً له ، وقال عنه الناس : إنه إسرائيلى من سبط داود .

وأعطى « ابن الحكيم » خاتم أمه إلى سليمان وسأله مقابله جزءاً من غطاء تابوت العهد لتقدسه أمه وتعبده وشعبها .

ولم يكن فى نية سليمان أن يعيد ابنه إلى أمه وجعل يغريه بمختلف أنواع الإغراء كى يقبل البقاء معه فى بيت المقدس حيث يوجد تابوت العهد ولوح موسى ، ولكن ذلك كله لم يكن يغرى ابن الحكيم بالإقامة بل صمم على العودة الى أمه وشعبه والى بلده الجبلى الذى ألف اللعب بين وديانه وشعابه . وصمم على العودة بعد أن يحمل معه قطعة من غطاء تابوت العهد ، وأنه لا يعدل بوطنه وطناً آخر ولا بملكه ملكاً آخر ، وإن كان هذا الملك ملك إسرائيل . لقد استحلفته أمه بما أرضعته من لبنها أن يعود اليها سريعاً وأن لا يتزوج من الخارج ، وإنه لأكرم من أن يخون هذا العهد وهذا القسم .

وعند ما تبين لسليمان تصميم ابنه على الرحيل جمع أعيان دولته وسألهم ما دام ابنه مصمماً على العودة الى الحبشة ليكون ملكها فليرسل كل واحد منهم ابنه البكر إلى الحبشة ليخدموا ولده كما يخدموه هم هنا . ووافقوا جميعاً على ذلك .

وأخذوا « ابن الحكيم » إلى الهيكل وأدخلوه قدس الأقداس حيث لمس المذبح وأعانه « صادوق » الكاهن الأكبر ملكا ، وأسبغ عليه اسم داود ، ثم أركبوه بغلة سليمان وطافوا به فى المدينة بين هتافات الشعب وأصوات المزامير والطبول .

وأخذ « صادوق » يعلمه كيف يحكم شعبه كما زوده بأهم ما جاء بشريعة موسى وقانونها ، وكذلك زوده الملك بكل ما يستطيع أن يحمله معه من الخيول والعربات والجمال والبغال والحمير محملة بالذهب والفضة واللؤلؤ والمرجان وغيرها من الأحجار الكريمة وكل ما كان ضرورياً أن يحمله معه ليستعين به فى حكم مملكته . وتجهيز الأبناء الأبكار ليصحبوا ابن ملكهم وليكونوا عوناً له فى حكم مملكته .

وبينما كانت التجهيزات تجرى للرحلة كان هؤلاء الأبناء يجتمعون ليدبروا معاً أمر مملكتهم الجديدة . فسرعان ما تبينوا أن هذه الرحلة بمثابة فراق نهائى لأهلهم ولوطنهم ، وتهيب أغلبهم أن يترك مدينة « صهيون » التى يحتفظ بها بتابوت العهد والتى يبسط عليها الرب حمايته . فاقترح عليهم « عازر بن صادوق » أن يحملوا معهم هذا التابوت . كما بين لهم الوسيلة التى يستطيعون بها أن يسرقوا هذا التابوت ويحملوه معهم دون أن يدرى أحد بفعلتهم أو يفطن إليهم فاطن . وهون عليهم كل تضحية فى سبيل غرضهم فأبدوا جميعاً استعدادهم لأن يبذلوا كل تضحية فى سبيل غرضهم ، وحينئذ جمع « عازر » منهم مالا ذهب به إلى نجار صنع له صندوقاً من الخشب له نفس أبعاد تابوت العهد وبين له أن ذلك ضرورى لرحلتهم ، حتى إذا أتموا صنعه حملوه سراً إلى منزل أحدهم واستأذن « ابن الحكيم » والده فى أن يقدم له ذبيحة إلى الإله قبل أن يترك بيت المقدس ، ففرح سليمان برغبة ابنه وقدم له مائة ثور ومائة بقرة وعشرة آلاف شاة وعشرة آلاف عنز وكمية هائلة من الدقيق وخبز الشعير وأمر أن يقوم بالخدمة فى القداس ، وأثناء تقديم الذبيحة حمل « عازر » وأصحابه الصندوق الخشبى الذى صنعوه إلى المعبد وهناك استطاعوا أن يستبدلوا به التابوت الحقيقى وحملوه سراً الى منزل « عازر » الذى حفر له وخبأه وجعل على مكانه علامة يستدل بها عليه فى المعبد . وفى مكان التابوت وضعوا الصندوق الخشبى بعد أن أغلقوا الأبواب وحملوا المفاتيح إلى الكاهن .

وإذا ما تم كل شىء استأذن « ابن الحكيم » أباه فى الرحلة فقبله ومنحه بركته .

وتذكر سليمان فى اللحظة الأخيرة ما طلبته زوجته من أن يزود إبنه بقطعة من غطاء تابوت العهد . فأمر « صادوق » أن يذهب إلى الهيكل ويأتى بغطاء التابوت القديم ويضع بدله غطاء جديداً ، ففعل ذلك « صادوق » دون أن يكشف الخديعة ، وأعطى سليمان ولده الغطاء القديم ففرح به كثيراً .

وسارت القافلة سيرها تقودها الملائكة وتمهد لها الطريق فى البر والبحر وتظللهم أجنحتها لتمنع عنهم أذى الشمس المحرقة ، فلم يجرؤ إنسان أو حيوان أن يتعرض لهم بسوء ، كما لم يشك أحد منهم من متاعب الرحلة أو حر النهار أو برد الليل وكانوا يقطعون فى يوم واحد ما تقطعه القوافل عادة فى ثلاثة عشر يوماً ، وفى مصر علم « ابن الحكيم » لأول مرة بأمر السرقة وأتوا به إليه فسجد له ، بينما كان أترابه

يصفقون ويرقصون من حوله ؛ وحينئذ أظهر الرفاق التابوت بعد أن رفعوا عنه ما كان يخفيه ووضعوا عليه الأغطية الثمينة وساروا به فرحين يهللون ويزمرون حتى لقد تعجب منهم المصريون . وزاد عجبهم حينما وجدوا تماثيلهم تنحنى وتسجد له إذا ما اقترب منها . وعند عبورهم البحر حملهم الملائكة على أجنحتها وكانت الأسماك تخرج من الماء وتتجمع حولهم طيور السماء لتحييهم وتغنى معهم أغانى الفرح والسرور حتى وصلوا سالمين إلى حدود الحبشة .

ولم يلبث سليمان أن روى لصادوق قصة حلم رآه وخاف منه خوفاً شديداً ، فلما سمعه هذا الرجل العجوز اصطكت ركبتاه اصطكاكا شديداً وخاف أن يكون التابوت قد مسه ضر أو خرج من بيت المقدس إلى الحبشة . فسأله سليمان عما إذا كان قد رأى التابوت بعينه يوم استبدال الغطاء الجديد بالقديم فأجابه أنه لم يفعل . فأمره الملك أن يسرع ليراه . وهناك تبينت له الحقيقة المرة المؤلمة حيث لم يجد إلا صندوقاً خشبياً فارغا . فأغشى عليه وخر على وجهه . ولما علم سليمان بالأمر أمر أن يطارد ابنه وجماعته حتى يلحق بهم ويسترد التابوت وخرج سليمان بنفسه مع القوة المطاردة بعض الطريق . فلما وصلت هذه القوة إلى مصر عرفت من شعبها أن من يبحثون عنهم قد رحلوا عنها منذ تسعة أيام . فأيقنوا أنهم قد فشلوا وأن التابوت قد خرج من يدهم إلى الأبد . فعادوا إلى بلادهم يجرون أذيال الخيبة .

واذا ما وصل « ابن الحكيم » الى الحبشة سبقته الرسل لتحمل لامه أخبار وصوله وحمله معه تابوت العهد ، فأرسلت اليه من يستقبله ويحمل اليه تحية أمه . وسارت هى الى أكسوم مدينة الملك لتستقبله هناك .

وعند ما رأت الملكة التابوت يسطع كالشمس فى كبد السماء خرت على الأرض ساجدة له وكشفت عن صدرها وصفقت بيدها وضحكت بصوت عال ودارت ترقص حوله رقص الفرح والسرور . وأمرت بالذبائح تنحر إظهاراً لهذا الفرح ، فذبح فى هذا اليوم اثنان وثلاثون ألفاً بين ثور وبقرة وخروف وماعز ، وحمل التابوت الى حصن قريب ورتب له ألف وثلاثمائة رجل لحراسته .

وبعد الوصول بثلاثة أيام استدعت الملكة ابنها ونصبته قائداً ووهبت له سبعة عشر ألف وسبعمائة فرس ، وسبعة آلاف وسبعمائة مهر ، وألف وسبعمائة بغل ،

وكلها مطعمة مجهزة بالذهب والفضة ، كما جعلت أعيان الدولة ووجهاءها يقسمون أمامها أن لا يجعلوا عليهم مستقبلا ملكة مطلقاً وأن لا يقبلوا ملكا عليهم إلا من نسل داود بن سليمان ، فأقسم الجميع فرحين . ونصبت الملكة « عازر » كاهناً أعظم وتقبل الناس عبادة الإله الواحد ، وصارت منذ هذا اليوم ديانة للحبشة .

ورغم أنها جعلت أعيان الدولة يقسمون أن لا يضعوا على عرشهم امرأة قط فإنها لم تترك العرش بل ظلت محتفظة به وجعلت همها نشر المذهب اليهودى وسحق الديانة السبائية القديمة ، واستمر حكمها خمساً وعشرين سنة مملوءة بكل أنواع المجد ، مما جعل الأحباش يعدونها أعظم ملوكهم ويرفعونها إلى مرتبة القديسات ، وقيل إن حكمها كان خمسين سنة وأنها ماتت حول سنة ٩٥٥ ق م ولها من العمر ستون سنة وأن « ابن الحكيم » كان ابنها الوحيد .

وعند وفاتها جدد « عازر » ومن معه العهد لابن الحكيم وأعلنوه ملكا عليهم من جديد فصحبوه إلى المعبد الذى بنته والدته وحفظت به تابوت العهد ، وهناك مسحه بالزيت المقدس وأعلنه ملكا على كل بلاد الحبشة . فقابله الشعب بالتهليل والغناء كما رقصوا ولعبوا الألعاب المختلفة التى تدل على فروسيتهم وشجاعتهم ، وظلت هذه الاحتفالات التى أقيمت على نفقة الملك عدة أيام طوال .

واختار ابن حكيم لنفسه اسم « منليك » وجعل ينظم دولته على نحو مملكة أبيه فى بيت المقدس ، كما نظم قوانينها وفقاً للقوانين الموسوية . فعين اثنا عشر قاضياً كعدد أسباط اسرائيل .

وحاول « منليك » أن يجعل من مملكته مثالا لمملكة أبيه سليمان .

وتصور لنا الأساطير الحبشية منليك هذا ملكا شجاعاً . اشترك فى حروب كثيرة خرج منها جميعاً منتصراً فقد هاجم أعداءه فى « زاداوهديا » وانتصر عليهم وقتل منهم عدداً كبيراً وخرب بلادهم وسار إلى « جيرا » حيث خرب المدينة التى كان يسكنها أناس لهم ذيول كذيول الحمير وعادوا إلى « أكسوم » منتصرين .

ثم سار ومعه جيشه إلى « سابا » فوصلها فى يوم واحد ، والرحلة إليها فى العادة

لانقطع فى أقل من ثلاثين يوما ، وخرب بلاد النوبة حتى حدود مصر ولقد أوقعت انتصاراته الرعب فى قلوب ملوك « مديام » و « مصر » حتى لقد أرسلوا له الرسل والهدايا .

وفى حملة ثالثة سار إلى الهند فخاف ملوكها منه ، فساروا إليه وقدموا له الهدايا بعد أن سجدوا له وقبلوا دفع الجزية .

وجميع هذه الحملات من وهم الخيال ولكنها تعطينا فكرة أن المؤرخ الحبشى كان فى احتياج الى أن يقدم هذه الشخصية الى الشعب الحبشى فى ثوب من الشجاعة المطلقة التى تتلاءم مع طبيعة الأحباش الجبلية المحبة للحرب .

وتقول الأساطير الحبشية أن « منليك » هذا حكم أربعاً وعشرين سنة ومات حوالى سنة (٩٣٠ ق.م) بالغاً من العمر خمسين سنة بعد أن تزوج أثناء حياته سيدة ، لا ندرى أكانت إسرائيلية أم حبشية ، أنجب منها ولداً هو « توماى » ارتقى العرش بعده .

وتظهر لنا علاقة الحبشة باليمن من جديد فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى حينما كانت الحبشة تطل على البحر الأحمر بثغر « عدول » وتتاجر مع البلاد التى تطل على هذا البحر كمصر وبلاد العرب . وقد كانت هذه التجارة دليلا على قوة ملوك « أكسوم » التى أخذت فى الظهور بعد انحلال مملكة « نباتا » فى الربع الأخير من القرن الأول قبل الميلاد ، وحينما غزا الحميريون مملكة سبأ ، وتدل النصوص الإغريقية التى نشرها « ليتمان » والتى يظهر أنها كتبت فى القرن الأول بعد الميلاد على إقامة نصب اعترافاً بفضل الإله « محرم » السبئى ، على ما أولاه إياهم من نصر على مملكة سبأ التى كانت على الشاطىء الشرقى للبحر الأحمر .

وتدلنا هذه النقوش أيضاً كيف أن ملكا لايذكر اسمه كان يعيش فى أكسوم ، فى النصف الثانى من القرن الأول بعد الميلاد قد قام بجملة فتوحات ، غزا فى الأولى منها شعب الجزء الجنوبى من الجزيرة العربية ، كما غزا «عجامى» و «سجايت» و«عدوة» وغيرها من الأماكن التى تقع فى الركن الشمالى الشرقى من الحبشة وكانت حياته كلها غزوات مستمرة ، كان آخرها هذه الغزوة الكبيرة التى أرسلها عبر البحر الأحمر ليؤدب الحميريين وجميع الشعوب التى تسكن جنوب الجزيرة العربية حتى عدن ،

وهؤلاء جميعاً كانوا قد اتخذوا نهب التجارة الحبشية التى تسير فى البحر الأحمر أو جنوب الجزيرة صوب حضرموت حرفة لهم .

وإن هذا النقش الذى عثر عليه ونشره « ديتمبرجر » عن ملوك « أكسوم » ليدلنا على وجود هذه الصلة . ومضمونه :

« . . . قد تملكت الشعوب التى تعيش بالقرب منى لأحافظ على السلم ، فقد غزوت شعوب كذا وكذا واقتسمت معهم أملاكهم وعبرت النيل وغزوت الشعوب التى تسكن على الناحية الأخرى والتى تتحصن فى الجبال العالية المغطاة بالثلوج التى يغوص فيها الإنسان حتى ركبتيه ، كما تسلطت على جميع الشعوب التى تجاورهم حتى وصلت إلى حدود مصر ، وهناك أسرت جميع رجال هذه القبائل ونسائهم وأولادهم وبناتهم ، كما استوليت على جميع ممتلكاتهم ، ومن بقى منهم رضى الخضوع لى كما رضى دفع الجزية ، كما أرسلت حملة بحرية إلى الضفة الأخرى من البحر الأحمر وقوضت عروشهم هناك ، وأرغمت ملوكهم على دفع الجزية عن أرضهم ، وقد ساعدنى الإله العظيم القوى لأخضع لسطوتى جميع الشعوب التى تجاورنى من الشرق إلى أقصى ماتمتد الأرض ، ومن الغرب إلى أبعد مايراه الإنسان . وأخيراً عدت إلى « عدول » حيث قدمت قرابين الشكر إلى « زيوس » و « أرس » و « بوسيدون » ، وكان ذلك فى السنة السابعة والعشرين من حكمى » .

وليس لدينا من النصوص أو النقوش ما يتيح لنا أن نقول شيئاً عن العلاقة بين الحبشة واليمن خلال القرنين الثانى والثالث الميلادى ، فهل معنى ذلك أن هذه العلاقة لم تكن موجودة أو أنها كانت واهنة ؟ كلا ، فدلائل الأحوال تدل على استمرار هذه العلاقة فى تلك المدة ، بل إنها كانت على شىء كثير من المتانة ، فملوك « أكسوم » مازالوا أقوياء بل على شىء ليس باليسير من القوة ، والدولة الرومانية فى أوج قوتها شرقاً حتى تحتك بالدولة الفارسية التى تسيطر على وسط آسيا . والحبشة ذاخرة بمواد التجارة التى تتطلبها هذه الدول القوية الغنية كالخشب وريش النعام والجلود والرقيق ، فمن الطبيعى أن تكون الحبشة سوقاً من أهم الأسواق التى يقصدها العرب الذين يحملون هذه المواد إلى البلاد التى تريدها ، فالتجارة إلى الدولة الرومانية تسير من اليمين صوب الشمال مارة بمكة ويثرب ، اللتين كانتا مركزين من مراكز

التجارة العالمية ، وإلى الدولة الفارسية من اليمن أيضاً صوب الشرق مارة بحضرموت ، ولعل أهم مواد هذه التجارة وأوفرها ربحاً تجارة الرقيق التى كانت الحبشة مورداً من أهم مواردها وسوقاً من أهم أسواقها ، فاليمن إذن كانت بحكم موقعها مركزاً من المراكز التى تتجمع فيها التجارة الحبشية لتوزيعها إلى مختلف الاتجاهات ، فلا غرابة إذن أن كان هم ملوك الحبشة موجها إلى السيطرة على هذه الأجزاء لضمان توزيع البضائع الحبشية فى أمن وطمأنينة . فما كاد « عيزانا » يرتقى العرش الحبشى فى القرن الرابع حتى وجد من الواجب عليه أن يجعل قوة الحبشة محسوسة فى جميع الأجزاء التى تخترقها هذه التجارة .

وتدل النقوش التى عثر عليها فى أكسوم والتى تؤرخ لهذا الملك أن تحت سلطته تمتعت الحبشة بأقصى ما تستطيع من القوة والمنعة ، ووصل الشعب إلى أقصى ما يدرك من الانتعاش ، فقد صارت أكسوم المركز الرئيسى لتجارة هذا الجزء من العالم حتى قصدها التجار من جميع الأجناس ليرتادوا أسواقها العامرة بالتجارة إلى حد التخمة ، ولقد كانت « عدول » بالنسبة للحبشة ما كانت عليه الإسكندرية بالنسبة إلى مصر . وهذه النقوش التى عثر عليها مكتوبة بالحبشية والإغريقية والسبئية دليل على صلاته واتساع رقعة مملكته .

وإن النظرة اليسيرة على هذه النقوش لتدلنا على أن هذا الملك كان القائد الشجاع كان الملك البعيد النظر الصافى الرأى الثاقب التفكير . فهو الذى أعلن الديانة المسيحية لتكون الديانة الرسمية للحبشة بعد أن لاقت طريقها إلى هذه البلاد خلال حكم الملكين « إلا أبرهه » و« إلا أصبحه » ، وظلت قاصرة على رجال البلاط فالحاشية ، وهو الذى وطد سلطة الحبشة فى جميع الأجزاء المحيطة بها .

وجميع النقوش التى تركها هذا الملك تبدأ بأن تذكر دائماً أنه كان ملك « أكسوم » و« حمير » و « ريدان » و « سبأ » و « سالحين » و « صيامو » و « بجه » و « كاسو » ، وأن أباه هو الإله « محرم » . ويقول عن طريقة حكمه : من قال أطيع فهو آمن ، أما من رفض الطاعة فليس له إلا القتل .

ولقد كان هذا الملك فى أول أمره وثنياً ، تدل عليه نقوشه التى تركها والتى كانت مكتوبة بالإغريقية والحبشية والسبئية .

إلا أنه بعد ذلك اعتنق المسيحية . وها هو ذا النص الحبشى الذى يدل على هذا الاعتناق . ونلاحظ فيه العبارة التقليدية التى يذكرها دائماً أنه كان ملكا على « حمير » و « ريدان » وغيرهما :

١ — بقوة إله السماء الذى فى السموات ويشرف على الارض والذى هو أقوى من جميع الموجودات .

٢ — عيزانا بن إلا عميدا ملك أكسوم .

٣ — وحمير وريدان وسابا وسالحين وصيامو وبجه .

٤ — وكاسو ملك الملوك ابن إلا عميدا الذى لا يرحم الأعداء .

٥ — باسم القوى إله السماء الله الحى القيوم الذى جعلنى ملكا .

٦ — يحكم دون أى رحمة للأعداء الذين لا يجرءون على أن يقفوا أمامى أو يتبعونى .

٧ — باسم إله الجميع قمت بحروب ضد النوبة لأن شعبها ثار .

٨ — وافتخروا بثورتهم وظنوا أن الأكسوميين لن يعبروا التكازى (نهر) إليهم .

٩ — وكان من عادتهم أن يهاجموا أهل منجورتو وخاسا وباريا والسود والحمر .

١٠ — وأخلوا بقسمهم مرتين بل ثلاث مرات .

١١ — وقتلوا جيرانهم بلا رحمة وبدون سبب كما نهبوا أموال التابعين لنا ومندوبينا .

١٢ — الذين أرسلناهم للتحقيق واعتدوا عليهم .

١٣ — وأخذوا منهم حرابهم وقد أرسلت محذراً إياهم ولكنهم رفضوا هذا التحذير كما رفضوا الإقلاع عن أعمالهم الشريرة واستمروا فى عتوهم .

١٤ — فلم أجد بداً من مهاجمتهم وإرغامهم على الفرار معتمداً على قوة الله .

وتمضي الوثيقة فى ذكر حروب الملك بالتفصيل مما لا يعنينا أمره إلا من جهة أنها تدل على قوة الحبشة فى ذلك الوقت ، أى فى القرن الرابع ، وأنها كانت تسيطر على مدخل البحر الأحمر الجنوبى ، وعلى كل من البلاد التى تقع على ضفتى هذا البحر . ولابد أن كانت أيضاً تسيطر على جميع الطرق التى تؤدى إلى حلفائها ، حتى لقد وصل إليها أيام الملك « إلاعميدا » تسعة من رجال الدين قادمين من الدولة الرومانية الشرقية ، فقاموا بتنظيم عبادات الدين الجديد وترجمة الكتب اللازمة له . ولقد استمرت سيطرة الحبشة على بلاد اليمن حتى القرن السادس . وكانت هذه السيطرة قوية حتى لقد قام الملك « كالب » بحملة قوية على « حمير » لتأديب حاكمها . وكان هذا الحاكم يهودياً يدعى « ذونواس » أساء معاملة نصارى نجران فقتل النساء والرجال والأطفال بلا رحمة ولا شفقة ، وأحرق منازلهم ومحصولاتهم ، وأوقع بهم الرعب والفزع . ولقد انتشرت أخبار هذه الفظائع فى العالم المسيحى فى ذلك الوقت ، فكتب « تيموثاوس » بطريرك الإسكندرية إلى « إلاأصبح » ملك الحبشة يأمره بنصرة إخوانه فى الدين . وبالرغم من محاولات « ذونواس » تعويق إرسال هذه الحملة فإن الجند الحبشى تمكن من النزول على ساحل اليمن ومهاجمة حمير بنجاح ، فقبض على ذى نواس واحتلت عاصمته وأعيدت إلى المسيحيين حريتهم ، وأقيم على حمير حاكم عربى مسيحى يدعى « أرياط » اتفق معه على أن يدفع له جزية سنوية .

وفى سنة (٥٣١م) نشبت الحرب بين « ابراميوس » أو « إلا أبرهه » حاكم اليمن من قبل ملك الحبشة وبين « أرياط » حاكم « حمــير » الذى صمم على المنازلة ليضع حداً لهذه الخصومة . فنجح الاخير فى جرح الأول حتى لقب بأبرهه الاشرم الذى لم يلبث أن انتقم لنفسه بالانتصار على « أرياط » وجعل نفسه حاكم اليمن ورفض أن يدفع الجزية لملك الحبشة . ويظهر أنه أصبح على شىء ليس باليسير من القوة حتى لقد اعترف « بيتا إسرائيل » ملك الحبشة بسيطرته على اليمن دون أية محاولة منه لنقض ذلك ، ولكن هذا الجفاء لم يلبث أن حل محله الوفاق حينما اتفق أبرهه الأشرم وملك الحبشة على القيام بحملة مشتركة على مكة فقامت من اليمن تقصد الشمال واستطاعت فى طريقها أن تتغلب على مقاومة « ذى نفر » وقتله ، كما تغلبت على مقاومة

القبائل العربية التى أرادت تعويق الحملة ، وكانت برياسة « نوفل بن حبيب القثعمى » ، ولكن المرض الذى انتشر بين أفراد الحملة فتك بهم وأرغم بقيتهم على العودة دون قتال . ولقد جاء ذكر هذه الحادثة فى القرآن الكريم فى سورة الفيل . ولم يستمر حكم الحبشة لليمن أكثر من سبعين سنة انتهت بثورة « معدى كرب بن سيف بن ذى غسان » ونجاحه فى تفويض الحبشة فى تلك الانحاء .

ولكن « أبرهه بن أرياط » نجح فى قتله وتنصيب نفسه على اليمن ، وأجلسته المساعدة الفارسية « لبازان » على عرش اليمن تابعاً للدولة الفارسية .

وفى أيام « أرماح » حدثت الهجرة الأولى للمسلمين إلى الحبشة ، وهى حادثة تهمنا من ناحية أنها تدل على استمرار العلاقات بين ساحلى البحر الأحمر وسهولتها فى ذلك الوقت ، إذ لم يجد هؤلاء المهاجرون أية صعوبة مطلقاً فى عبور البحر والوصول إلى الحبشة ، وقد يسر الله لهم مركبين نقلاهم إلى الحبشة لقاء نصف دينار ، كما أن خروج أبى موسى الأشعرى من اليمن مهاجراً إلى الحبشة تدلنا كذلك على استمرار العلاقات بين اليمن والحبشة ، رغم ما كان يقوم بينهما من جفوة نتيجة لتسلط « بازان » على اليمن تابعاً لملك الفرس . وأن وصول أخبار النبى صلى الله عليه وسلم الحبشة ووصول الوفود المختلفة إلى الجزيرة العربية لتتقرب إلى النبى على نحو ما روته المصادر الإسلامية المختلفة ، لتقوم دليلا آخر يضاف إلى ماسبقناه من الأدلة المختلفة على استمرار العلاقات بين ساحلى البحر الأحمر .

ولم تكن العلاقات لتستمر على هذا النحو من السهولة واليسر إلا نتيجة لظروف طبيعية تحتم وجود هذه العلاقات . فظروف الحياة القاسية فى شبه الجزيرة العربية ، وسهولتها فى الحبشة ، تجعل هجرة اليمنيين إليها سهلة مستمرة ، كما أن دور الضعف الذى أخذت الحبشة تجتازه أثر ظهور الإسلام وضياع الشام من يد الدولة الرومانية الشرقية ، وحرمان الحبشة من هذا الحليف ، ساعد نشاط هجرة اليمنيين إليها ، وبخاصة أنه قد قامت فى الجزيرة العربية حكومة موحدة ترغم اليمنيين على الخضوع لها ، الأمر الذى لم يتعودوه من قبل ، ولذا شهدت الحبشة على أثر قيام الحكومة الإسلامية فى المدينة هجرات يمنية مستمرة تقصد إلى ساحل الحبشة للتوطن والتجارة ، كما كانت

كثرة المال فى يد المسلمين نتيجة لما وقع فى يدهم من الغنائم فى حروبهم الأولى داعياً إلى إقبالهم على اقتناء الرقيق ، ولم يكن أحب إليهم من رقيق الحبشة فقد اشتهر الرجال منهم بأمانتهم وتحملهم للعمل وحبهم له ، كما اشتهرت النساء بجمالهن الذى كان مضرب المثل بين جميع أنواع الرقيق . ولم يكن هناك أقرب من اليمنيين ليقوموا بهذا العمل ، ولذلك نستطيع أن نقول إن العلاقات بين الحبشة واليمن دخلت فى السنين الأولى من التاريخ الهجرى فى طور من النشاط لم تشهده كل من الحبشة واليمن فى جميع عصورهما السالفة ، وكان من نتيجة هذه العلاقات النشطة أن أخذ الإسلام يظهر وينتشر على الساحل الشرقى للحبشة ، بين المهاجرين والتجار ، وكذلك بين السكان الأحباش أنفسهم . وهؤلاء المسلمون الذين قطنوا شرق الحبشة أخــذوا ينظرون إلى قيام علاقات بينهم وبين الساحل الشرقى للبحر الأحمر كأنها أمر طبيعى جداً ، أكثر مما لو كانت هذه العلاقات بينهم وبين الأحباش أنفسهم الذين يقطنون معهم نفس بلادهم . ولهذا نجد أنه بينما أخذ الأحباش ينطوون على أنفسهم داخل كتلتهم الجبلية أخذ إخوانهم القاطنون فى الجزء الشرقى يكونون مع إخوانهم القاطنين على الساحل الشرقى للبحر الأحمر وحدة تشتغل بالتجارة وتجعل من البحر الأحمر وسواحل إفريقية الشرقية خلية النحل تزدحم بالمراكب الصغيرة والكبيرة .

وبينما كان الجزء الشمالى من الامبراطورية الإسلامية يخضع لتيارات سياسية مختلفة فيهتز ويضطرب تبعاً لهذه التيارات المختلفة ، فيخضع طوراً للخلفاء الراشدين وطوراً آخر للدولة الأموية ، ويضطرب فيما تضطرب فيه هـذه الدولة من حروب وفتن ، أو للدولة العباسية ، ويشهد ما شهدته هذه الدولة من فتن وحروب وقلاقل ، كان هذا الجزء من العالم والذى ينحصر فى البحر الأحمر الجنوبى وما على ساحليه الشرقى والغربى من بلاد يتمتع بهدوء نسبى ، ولا هم لأهله إلا الاشتغال بالتجارة والثراء عن طريقها . بينما كان أهالى البندقية يقومون بنقل التجارة بين موانىء الشرق والسواحل الجنوبية لأوروبا كان هؤلاء الخليط من اليمنيين والأحباش يكونون خطاً آخر يقوم بحمل التجارة بين موانىء البحر الأحمر والمحيط الهندى من جهة ، وموانىء مصر الشرقية من جهة أخرى .

ولم تلبث الأحوال فى مصر أن تطورت على وجه يخالف ما كان مألوفاً من قبل فقد قامت فيها الدولة الفاطمية ذات الشخصية المستقلة وأخذت فى توسيع رقعتها حتى

شملت شبه الجزيرة العربية حتى آخر حدودها الجنوبية بما فيها اليمن . وبذلك صارت هذه البلاد باباً لمصر من ناحية الجنوب تطل به على المحيط الهندى ، كما تطل به على الحبشة تلك البلاد ذات الصلات التقليدية مع مصر . وبذلك أصبح حتماً على الحبشة إذا ما أرادت الاتصال بمصر — وكثيراً ما كان يحدث هذا الاتصال لطبيعة ما كان بينها من علاقات دينية — أن تمر باليمن وأصبح لزاماً على صاحب اليمن أن ينهى الخليفة أو السلطان فى مصر بما يفيد رغبة الحبشة فى الاتصال بالمسئولين فى مصر . وإذا ما قامت الدولة المملوكية فى أواخر القرن الثالث عشر وكونت اليمن جزءاً منها ظلت تقوم بما كانت تقوم به سابقاً كباب جنوبى لمصر يمر بها كل قادم إليها من الحبشة .

فبينما أرسل « يجبا صيون » إلى مصر وفداً برياسة عبد الرحمن بن يوسف يطلب تنصيب مطران جديد للحبشة مر هذا الوفد باليمن حيث احتجزه صاحبها حتى يكتب إلى السلطان فى ذلك ويتلقى منه الأوامر بشأنه . وإذا ما تكونت الولايات الإسلامية فى شرق الحبشة وتمتعت بشخصيتها شبه المستقلة ولا يربطها بامبراطور الحبشة إلا رباط من الولاء والجزية ظلت هذه الولايات الحبشية على علاقاتها الحسنة مع اليمن ، حتى إذا ما ثار « حق الدين » على الامبراطــور « نوايا كرستوس » (١٣٤٢ — ١٣٧٢) وجد كل معاونة من حكام اليمن . وإذا ما استطاع الامبراطور « داود » (١٣٨٢ — ١٤١١) أن يخمد حركته ويقتله ويرغم أولاد أخيه على الفرار من وجهه وجد هؤلاء الثوار الفارون من سلطان اليمن كل معونة ممكنة ، وظل يسبغ عليهم ويجهزهم للقتال مدى عشر سنوات كاملة . فهل كانت هـذه المساعدات كلها إلا دليلا على ما كان بين الحبشة وبينهم من علاقات مستمرة . أما هؤلاء الثوار ، ولو أنهم كانوا فى ثورة ضد امبراطور الحبشة إلا أننا لا يمكننا أن ننظر إليهم بصفتهم أحباشاً اعتمدوا على ما كان يربط بلادهم باليمن من علاقات طبيعية مستمرة على توالى الزمن ، فلجئوا إليها فى محنتهم طالبين الأمان والمساعدة . فكانت اليمن عند حسن ظنهم بها وقامت بواجبها على أحسن ما يكون القيام بالواجب .

ومر النصف الثانى من القرن الخامس عشر وملوك الحبشة مشغولون بحروبهم التى كان يشنها عليهم الطامعون من السلاطين المسلمين أو غيرهم من الأمراء المسيحيين ، أو تجار الرقيق الذين عاثوا فساداً فى الجزء الشرقى من الحبشة . يزيد فى طغيانهم

إلحاح العالم فى طلب الرقيق الحبشى ، هذا بينما كان الأتراك يؤسسون امبراطوريتهم فى آسيا الصغرى ويقودون جيوشهم الظافرة فى الشرق الأدنى ويستولون على هذا الجزء من العالم ، ويطردون منه منافسيهم من البنادقة ، ويقضون على دولة المماليك فى مصر ، ويطلون على البحر الأحمر . ولا يلبثون أن يستولوا على اليمن وتتطلع أعينهم إلى الحبشة ، فيخيل إليهم أنهم إذا استطاعوا أن يستغلوا العلاقات القديمة بين الحبشة واليمن للتدخل فى شئون هذه البلاد ليسيطروا على ساحلى البحر الأحمر ليصير هذا البحر الصغير بحيرة تركية . فاتصلوا بالإمام أحمد بن إبراهيم كما مر بنا، وساعدوه بالأسلحة والمال والرجال ليشن الحرب ضد مولاه الامبراطور ونجح فعلا فى ثورته مدة أربعة عشر عاماً . فنحن لن نستطيع إلا أن ننظر الى الإمام أحمد كرجل حبشى ظهر على مسرح الحوادث نتيجة لتطور العلاقات القديمة بين اليمن والحبشة . فإذا كانت هذه العلاقات قد سارت دائماً وجهة اقتصادية ، لا هم لها إلا منفعة السكان الذين يقطنون هـــذا الجزء من العالم ، فما الذى يمنع من أن تسير هذه العلاقات فى هذه الفترة اليسيرة الى وجهة غير الوجهة الأولى ، وأقصد وجهة سياسية ، الغرض منها تمكين الأتراك من هـــذا الجزء وإنهاء الحبشة المسيحية والقضاء على هذه الامبراطورية الصغيرة ، ولكن هذا الاتجاه الجديد لم يكن مقصوداً لذاته إنما كان وسيلة لغاية مازالت هى الغاية الاقتصادية الأولى ، ألا وهى قبض الأتراك على طريق التجارة الهندى القديم والقضاء على المنافسة البرتغالية التى كانت قد استقرت فى هذه الأنحاء منذ مدة ليست باليسيرة . وإذا كان الأباطرة فى الحبشة قد شلتهم الحوادث الداخلية فى النصف الثانى من القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر ، وانصرفوا إلى تحسين الأحوال التى خربتها الحروب ، فليس معنى ذلك توقف العلاقات بين الحبشة واليمن ، بل معناها انصراف الأهالى إلى أعمالهم المدنية وعودة العلاقات التجارية بين الحبشة واليمن سيرتها الأولى من الهدوء والاستقرار ، اللذين تعودتهما قبل الاحتلال التركى لليمن ، وقبل قيام الإمام أحمد بحركته الحربية المدمرة .

ولا بد أن هذه العلاقات الطبيعية قد عادت قوية كما كانت فى مدة يسيرة ، حتى إذا بدأ الامبراطور « فاسيلاداس » حركته التى ترمى إلى تطهير البلاد من بقايا البرتغاليين والتخلص من نفوذهم اتجه نظره إلى استغلال هـــذه العلاقات القديمة بين

الحبشة واليمن ، والتى عادت الآن إلى الظهور فى شكلها العادى الهادىء القديم للوصول به إلى مآربه .

فليس اتصال الأتراك بالإمام « أحمد بن إبراهيم » ومساعدتهم له بالذخيرة والأموال ، ودفعهم له الى الثورة على الامبراطور ، وليست محاولة الامبراطور « فاسيلاداس » فى إرسال وفد إلى اليمن لإيجاد صلات بين البلدين إلا مظهرين لحالة واحدة ، وهى محاولة استغلال العلاقات التقليدية القديمة بين الحبشة واليمن لأجل السياسة . وإذا كانت هاتان المحاولتان قد حدثتا خلال فترة يسيرة لا تزيد على ثلاثة أرباع القرن فإنها تدل ولا ريب على قوة هذه العلاقات، وأنها لم تكن وليدة ظروف طارئة ، بل هى وليدة ظروف طبيعية تكفل لها ، لا الدوام والاستقرار فحسب ، بل تكفل لها أيضاً القوة التى تستطيع بها التغلب على جميع العقبات التى تحول دون استمرارها .

٨ — حالة اليمن

فى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى

كان القرن الحادى عشر بالنسبة لليمن قرناً شاذاً حين حاقت بها المصايب ، وابتليت منذ منتصف القرن العاشر وفى سنة ٩٤٦ هـ على وجه التحديد بالاحتلال التركى ، إذ لم يكد السلطان « سليم » ينتهى من احتلال « فارس » ثم « مصر » ، ويولى على هذه الأخيرة «خير بك» والياً من قبله جزاء خيانته لسيديه السلطان «الغورى» ثم السلطان « طومانباى » حتى اتجه بصره الى شبه الجزيرة العربية ليحتلها ويشرف بوساطتها على الساحل الشرقى للبحر الأحمر ، وكذلك على خليج عدن . توجهت الجيوش التركية الى الحجاز فاحتلتها وما زالت تسير جنوباً حتى وصلت اليمن بقيادة « أويس باشا » فتم له فتحها وقبض على حاكمها « عامر بن داود الطاهرى » الذى كان يتولاها من قبل الدولة المملوكية .

ولكن إذا كان الحكم التركى قد استقر فى الشام وفارس ومصر والحجاز ، وأخذت الدولة تولى من قبلها على هذه الأجزاء ولاة يحكمونها لصالح الدولة ، إلا أنها وجدت اليمن عدواً لا يلين ، فقد ثار الأهالى يقاومون هذا الاحتلال الأجنبى يقودهم الإمام المطهر شرف الدين .

وعلى نحو ما فعل الأتراك بخير بك حين لوحوا له بمنصب الولاية ليخون سيده ويهيء للحكم التركى قدماً راسخاً ، دفعوا فى اليمن بحسن البهلوان ومدوه بالمساعدة كى يناوىء الإمام ويناصبه العداء ، ولكنه تغلب عليه . ولم يجد السلطان بداً من تغيير الوالى فاستبدل باويس « ازدمر باشا » فتلقاه وقتله وتغلب على جيوشه ، وظل هكذا يناوىء الحكم التركى زهاء ثلاثين سنة ، أى الى سنة (٩٨٠ هـ) وينزع من الأتراك البلاد شبراً شبراً ، والسلطان يعجم عن أعواد قواده واحداً بعد الآخر ويرميه بأشدهم لعله يستطيع أن يتغلب عليه . فرماهم بمصطفى باشا ، فرضوان ، فمراد ، فعثمان ، والإمام يتلقفهم واحداً بعد الآخر وينزل بهم وبجيوشهم أشنع النكبات ، حتى دخل صنعاء وملكها وجعلها قاعدة لحكمه . ولم يبق بيد الأتراك إلا « زبيد » . وأخيراً

لجأ السلطان إلى « سنان باشا » بعد أن أبدى كفاءة فى الانتصار على « البلغار » وإخضاعهم . فكان وصوله إلى اليمن إيذاناً بانهيار المقاومة اليمنية وإخضاع اليمن كلها للحكم التركى ، بعد أن انتصر على «المطهر» ففر من اليمن ومعه ولاته الذين أقامهم على الأنحاء المختلفة .

ولكن إذا كان الإمام « المطهر » قد فر من البلاد ومات فى سنة (٩٨٠ هـ) فليس ذلك يعنى انتهاء المقاومة اليمنية للاحتلال التركى ، فقد توالى على منصب الولاية «سنان باشا» «فيوم باشا» ثم «بهرام» ثم «مصطفى» لمدد قصيرة على نحو ما كانت عادة الأتراك فى تولية ولاتهم لمدد لا تزيد عن عامين أو ثلاثة مخافة أن يستقل أحدهم بولايته . وأولاد « المطهر يحيى » ، « فلطف الله » ، « فغوث الدين » ، « فعبد الرحمن » يقاومونهم ويناصبونهم العداء . ولكن « حسن باشا » استطاع أن يتصل بهم واحداً بعد الآخر ويقنعهم بمهادنة الدولة .

ويظهر أن هذه المهادنة التى رضى بها أولاد الإمام « المطهر » لم تقنع الأهالى الكارهين للاحتلال الأجنبى ، فنادوا بالإمام «الناصر لدين الله الحسن بن على» المؤيد زعيماً للمناضلين وممثلاً للمقاومة الوطنية ، فظل يقاوم الواليين الجديدين «مصطفى باشا» و«فؤاد باشا» حتى أرغم وخلفه الإمام الحسن السلطان على استبدالهما . وعين «حسن باشا» فوصل اليمن ومعه قوة من جند الإنكشارية تبلغ ثمانين ألفاً ، نزل بها على الوطنيين فانتزع البلاد من أيديهم حتى حاصرهم ومعهم إمامهم فى حصن « الصباب » وقبض على الإمام وأرسله ومعه أولاد « المطهر » الى القسطنطينية عام (٩٩٤ هـ) واستقر الحكم التركى فى اليمن الى حين .

وكأنما أراد حسن باشا أن يستريح مما ناله من نصب ، أو كأنما طمع فى منصب أكبر من ولاة اليمن فسافر الى القسطنطينية وترك فى اليمن «سنان باشا» قائد الجند .

ورأس اليمنيين فى ذلك الوقت « القاسم بن محمد بن على » الذى رأى ماعليه الدولة من شدة البأس وعظيم القوة ، فانصرف إلى العلم وأقبل عليه تلاميذه ينهلون من موارده . وهو لا يقرب السياسة من قريب أو بعيد ، ولكن يظهر أن السلام الذى ساد بين الوطنيين — وعلى رأسهم الإمام — وبين الأتراك لم يستمر طويلا ، اذ لم يلبث

أن أقنع اليمنيون الوطنيون إمامهم بسنوح الفرصة المواتية لاسترداد استقلالهم المفقود. فقاموا فى وجه الأتراك ، ولكن قوة الدولة بقيادة «جعفر باشا» كانت أسرع اليهم من آمالهم ، فحوصر الإمام ومن معه فى «كوكبان» واسترد القائد كل ما كان اليمنيون قد ملكوه من أجزاء اليمن . ولم يلبث «ابراهيم باشا» ثم «محمد باشا» أن أقنعا الإمام أن المقاومة غير مجدية ، فجنح الى الصلح معهم . فتمكن الحكم التركى من جديد وانصرف الإمام الى ما كان منصرفاً اليه من العلم والتصنيف حتى مات سنة (١٠٢٩ هـ) .

وكان «محمد باشا» من أحسن الولاة الذين توالوا اليمن لما بدأه من ضروب الإصلاح والعطف على الرعية ، إلا أن سياسة السلطان التركى لم تمهله ليتم ما بدأه على نحو ما كانت تسير عليه السياسة التركية فى ذلك الوقت . وعلى نحو ما رسم السلطان «سليمان القانونى» لمن خلفه من السلاطين .

ويظهر أن حسن السياسة التى اتبعها «محمد باشا» مع اليمنيين أقنعتهم بالجنوح الى السلم ، حتى اذا اختاروا «المؤيد بالله محمد بن القاسم» إماماً لهم كان كارهاً لهذا الاختيار واشترط عليهم اتباع سياسة المسالمة مع الأتراك .

واذا ما عزل «محمد باشا» واستبدل به «فضلى باشا» الذى كان فظاً ضيق الأفق استبدل اليمنيون بسياستهم السلمية سياسة الشدة والعنف ، وقاموا يعاودون سيرتهم الأولى فى مناوءة الدولة ومحاولة اســترداد استقلالهم . واذا كانوا قد فشلوا فى المحاولات الأولى لقوة الدولة التركية الا أن الضعف الذى انتابها فى هذه الأيام مكن اليمنيين من التغلب على الأتراك واسترداد ما بيدهم من البلاد حتى أخرجوهم منها نهائياً سنة (١٠٤٥ هـ) ونصب الإمام «المؤيد بالله» سلطاناً على اليمن المستقلة حتى مات سنة (١٠٥٤ هـ) واستقام الأمر بعده لأخيه «المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم بن محمد بن على» وكان صاحب زهد وورع ملازماً للعلماء مشجعاً لهم . وملك حتى سنة (١٠٨٧ هـ) .

ومن ذلك يتضح أن اليمنيين لم يكونوا يكنون للأتراك إلا كل حقد وكراهية . ونجد هذا الحقد وهذه الكراهية ممثلة بين سطور المخطوطة التى بين أيدينا . وكتابات كثير من الكتاب اليمنيين فى هــذا العصر ، رغم ما كان يربطهم بالأتراك من وحدة الدين .

ففى هذا الوقت كان يتنازع السيادة فى هذا الجزء من العالم قوتا الأتراك والبرتغاليين ، على نحو ما مر بنا ، وكان الأتراك قد ملكوا «مصر» وانحدروا إلى «السودان» حتى «سواكن» كما انحدروا على الشاطىء الشرقى للبحر الأحمر حتى وصلوا إلى اليمن وأرادوا إكمال سيادتهم فدفعوا بالإمام «أحمد بن ابراهيم» إلى الثورة على سيده الإمبراطور «لبنادنجل» ، «فجلاوديوس» ولكن فشله فى ثورته قضى على آمالهم وبذلك أصبح اليمنيون — بالرغم مما كان يربطهم بالأتراك من صلة الدين — والأحباش — بالرغم مما كان يربطهم بالبرتغال من صلة الدين أيضاً — يستطيعان معاً أن يكونا قوة ثالثة تستطيع أن توازن بين هاتين القوتين الطارئتين اللتين تريدان السيطرة على هذا الجزء . فلا غرابة إذن إذا أرسل الإمبراطور «فاسيلاداس» بالرسل ومعهم الهدايا إلى الإمام المؤيد بالله عام (١٠٥٢هـ) ثم إلى الإمام المتوكل عام (١٠٥٧هـ) يطلب إقامة العلاقات بينهما . ولكن يظهر أن اليمن لم تقدر الظروف التى تدعو إلى إقامة علاقات من شأنها أن توجد هذا التوازن ، فاكتفت بأن تكون علاقتها بالحبشة علاقة صداقة عادية .

٩ ــ حالة الحبشة

فى القرن الحادى عشر الهجرى ــ السابع عشر الميلادى

خرجت الحبشة من الحرب الأهلية التى شنها الإمام «أحمد بن ابراهيم» منهوكة القوى تكاد من فرط أعبائها تتحطم، فأمضت مدة طويلة وهى تحاول أن تسترد أنفاسها المنهوكة.

ولكن لم يكتب لها أن تسترد الراحة التى تنشدها والتى هى خليقة بأن تعيد الى الحبشة ما كانت تنعم به من أمن ووحدة. فقد انقسمت البلاد من جديد الى معسكرين وأخذت تعانى من هذا الانقسام كثيراً ولمدة طويلة. فقد خلف «ميناس» أباه «جلاوديوس» على العرش فى سنة (١٥٦٣ م) وسمى ملك «سجد الثانى». فاتبع سياسة أبيه نحو البرتغاليين، ودافع عن كنيسته الوطنية دفاعاً مجيـــداً، فكان من الطبيعى أن يحببه ذلك الى شعبه ويقضى على محاولات الثائرين. ولكن ذلك لم يحدث، فلم يعدم البرتغاليون حكاماً طامعين يلوحون لهم بالمساعدة الحربية والمالية ويدفعون بهم الى الثورة ليقيموا العراقيل فى سبيل هذا الملك الذى استعصى عليهم، وفئة أخرى حنقت على الحبشة وودت لو ترد بها من جديد فى مهاوى الفوضى وهم الأتراك الذين استقروا فى الموانىء الشرقية، وجعلوا يرقبون الحوادث بعين لا تنـــام. فاتفق البرتغاليون والأتراك معاً على أن يدفعوا بالرأس «إسحاق» حاكم «جودجام» الى الثورة حتى إذا قضى الملك عليه دفعوا بآخر هو الرأس «دبا» الى الثورة، وكانت ثورة هذا الأخير من القوة حتى استطاع أن يهزم الجيوش الامبراطورية فى أكثر من موقعة ويأخذ الملك أسيراً. فكأنه قد كتب على هذا الملك أن يبدأ عهده ويختمه وهو أسير، فقد وقع أسيراً قبل اعتلائه العرش أثناء حروب أبيه مع الإمام «أحمد ابن ابراهيم»، وافتدى بفدية كبيرة. وها هو ينهى أيامه وهو أسـير فى يد أعدائه.

فتبعه ملك «سجد» الثانى فى سنة (١٥٦٣ م) فكان رجلا واسع الفكر كره الأجانب وتدخلهم فى أمور دولته. ولكنه أفسح صدره للكاثوليك لما يعرفه من غزارة علمهم وما تجنيه البلاد من ترجمة كتبهم الدينية الى اللغة الحبشية، حتى اذا وصل الى البلاد البطريرك الكاثوليكى «بايز» استقبله الملك استقبالا حسناً وأسبغ عليه حمايته.

ولكن ذلك لم يرض الوطنيين، وسعى اليهم الأمراء الطامعون من جـــديد ليتخذوا من هذه السياسة تكأة لتنفيذ أغراضهم، فعاد الثائر «زاسلاسى»، ودفع «بسوسنيوس» إلى العرش مؤملا أن يكون هو المحرك الحقيقى لسياسة البلاد أثناء حكمه، وفعلا ظل كذلك حتى ضاق به الملك الجديد «سوسنيوس» ــ ملك سجد الثالث ــ أخيراً وأراد التخلص منه، وبخاصة أنه عول هذا الملك الجديد (١٥٩٧ ــ ١٦٣٢) على انتهاج سياسة سلفه فى الميل نحو الكاثوليك وإعطاء ظهره للكنيسة الوطنية. ونجح فى ذلك نجاحاً منقطع النظير، إذ لم يفت من عضده حينما ثار «ملكا صادق» ليأخذ بثأر «زاسلاسى» ولكنه قضى عليه كما قضى على زميله الاول، واتخذ من هذين الانتصارين برهاناً على رضاء الله عن سياسته الجديدة التى ترمى كما قلنا الى الانحياز الى جانب الكنيسة الرومية. ولكن الوطنيين الذين فهموا من هذه السياسة الجديدة أنها ارتماء فى أحضان الأجانب وتسليم لبلادهم إلى أعدائها انحازوا إلى جانب الثائرين، كما أخذوا يحرضون الناس على القيام فى وجه ملكهم، فكان من أثر ذلك أن قضى الملك «سوسنيوس» أربعين سنة وهو لا ينى عن الحركة المستمرة الدائبة فى سبيل حماية عرشه. وهو وإن كان قد نجح فى هذا السبيل إلا أنه تبين له أخيراً سوء سياسته التى كانت ترمى إلى فرض المذهب الرومى على شعبه المتمسك بمذهبه القديم.

وخلفه على العرش ابنـــه «فاسيلاداس» سنة (١٦٣٢ ــ ١٦٦٥) فانتهج سياسة تخالف سياسة أبيه وقلب للكاثوليك والبرتغاليين ظهر المجن وطردهم من البـلاد، وأعاد الى الكهنة الوطنيين اطمئنانهم. فكان من الطبيعى إذن أن تعود البلاد إلى حالة الاستقرار ولكن ذلك كان بعيداً، فقد أخذ البرتغاليون والأتراك من جديد فى خلق المصاعب ودفع الثائرين والناقمين إلى الثورة على الملك الجديد مما دعاه الى محاولة التحالف مع الأتراك واليمنيين، فعاش طول حياته وهو يخاف على بلاده خطر الغزو الأجنبى.

وخلفه «يوحنس» الأول (١٦٦٥ ــ ١٦٨٢) وسار على سياسة سلفه التى تنحصر فى تخليص البلاد من هؤلاء الأجانب الطارئين وجعل الحبشة للأحباش.

فما كانت هذه السياسة ألا لتنتج نفس النتائج التى أنتجتها سياسة سلفه ، وهى الثورات من الأمراء الناقمين واحتضان الكاثوليك لهؤلاء الثوار .

وخلفه « ياسو » الأول (١٦٨٢ — ١٧٠٦) الذى كان محبوباً من شعبه لما كان يحاوله دائماً من مساعدته وتخفيف ويلات الحروب عنه ، ومن إعادة التجارة الى سيرها الأول من الامن والانتعاش . ولكن ذلك أيضاً لم يمنع الثائرين من محاولة الانقضاض عليه ، فكأنه قد كتب على الحبشة أن تمر فى هـــذا القرن بفترة من الاضطراب القاسى العنيف الملىء بالثورات والفتن ، فإذا ما انضم الامبراطور إلى جانب الكنيسة الوطنية ليعيد الى البلاد هدوءها ويخلصها من هؤلاء بما لهم من مال وأسلحة يشجعون بها الثائرين ويدفعون بهم الى خلق الاضطراب والفوضى ، وإذا ما انضم الملك الى هؤلاء الاجانب الأقوياء ليأمن شرهم أو ليحاول أن يفيد البلاد من قوتهم وعلمهم ، ثارت الكنيسة الوطنية ومعها المتمسكون بتقاليدهم واتخذوا من هذه السياسة الجديدة تكأة ليخلقوا الاضطراب والفوضى . فكان من جراء ذلك أن شمل الاضطراب جميع مناحى الحياة الحبشية خلال القرن السابع عشر الميلادى ، فاضطربت أمور الأهالى اضطراباً قاسياً . فلم يكن عدد السكان يعدو عشر عددهم الحالى وينتشرون فى قراهم الصغيرة انتشاراً خفيفاً على سطح الهضبة الجبلية ، وهذا العدد اليسير تعرض لجميع أنواع المحن من جوع ومرض وحرب وقتل ، ونظروا إلى كل هذه البلايا كأنها جزاء عدل من السماء وجزاء انصرافهم عن الدين . فلجأوا الى رجال الدين يكثرون من تمائمهم وأحجبتهم ، ولكن هؤلاء كانوا منصرفين الى قضاياهم الخاصة والى ما كانت تنوى الدولة أن تنزله بهم فى بعض الأحيان من انصراف عنهم . وتعرضت العلاقة الدينية بين الحبشة ومصر لمختلف أنواع المحن مما أدى إلى شغور الرياسة الدينية لمدد تختلف طولا وقصراً ، وأن هـذا الشغور كان أقصى ما كان يخافه الاحباش إذ معناه شغور الوظائف الصغرى أيضاً وعدم عثور الحبشى العادى على المرشد الذى يهديه فى حياته العامة والخاصـــة . ومعنى ذلك اضطراب الأحوال الزوجيـــة مما يؤدى الى اضطراب العلاقات بين أفراد العائلة الواحدة ولا بد أن معنى ذلك أيضاً كان انهيار الحياة الاجتماعية فى الحبشة خلال قرن كامل من الزمان .

ولا بد أن انصراف الحكومة والامراء إلى الحرب وإلى خلق المنازعات يؤدى فى العادة إلى توقف التجارة نتيجة لاضطراب حبل الأمن اضطراباً ليس باليسير .

ولكن رغم كل هذه البلايا وهذه المحن التى نزلت بالبلاد لم يكن القرن السابع عشر شراً كله ، فقد شهدت البلاد خلاله نهضة أدبية هى الأولى فى تاريخ الحبشة بعامة ، فقد أخذ البرتغاليون يعملون على نشر المذهب الرومى بترجمة الكتب الدينية إلى الامهرية ، وقابلت الكنيسة الوطنية هذا الهجوم بهجوم مماثل ، وقامت الكنيسة المصرية بدورها فى هذا السبيل فأمدت الاحباش بمجموعة من الكتب ترجمت كلها إلى اللغة الأمهرية وأضافت الى الأدب الأمهرى ثروة هائلة ما زالت البلاد حتى الآن تجنى ثمارها .

١٠ – تراجم لأعلام جاء ذكرهم

(ا) المنصور بالله القاسم بن محمد (الإمام)

عن تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن للعلامة الشيخ عبد الواسع بن يحيى الواسعى اليمانى . القاهرة ١٣٤٦ المطبعة السلفية صفحة ٥٢

الإمام المنصور بالله (الولادة سنة ٩٦٧ — الوفاة سنة ١٠٢٩ العمر ٦٢) القاسم بن محمد عليه السلام بن على بن محمد بن الرشيد بن أحمد ابن الامير الحسين الأصغر ابن على بن يحيى بن محمد بن يوسف ابن الإمام الداعى إلى الله القاسم ابن الإمام يوسف — بن الإمام المنصور بالله يحيى ابن الإمام الناصر أحمد ابن الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين .

كانت نشأته وكراماته باهرة أقر بفضله المؤالف والمخالف ، نطقت باسمه فى جو السماء الهواتف ، وله المؤلفات الجليلة فى سائر الفنون ، جرت بينه وبين الأتراك حروب كثيرة .

(ب) الحسين بن على الفخى

عن تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن صفحة ١٧

الحسين بن على الفخى ولد سنة ١٢٨ هـ وتوفى سنة ١٦٩

الإمام الحسين بن على الفخى بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب خرج بعد المبايعة من المدينة نحو مكة ، فتلقاه جنود موسى الملقب بالهادى فقتلوه بفخ يوم الروية . وحمل رأسه الى الهادى ودفن بدنه هنالك ومشهده مزور . وقتل معه جماعة من أهل بيته نحو مائة بفخ المعروف الآن بالشهداء خارج مكة على طريق العمرة .

(ج) المؤيد بالله

عن البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكانى مطبعة السعادة .

القاهرة سنة ١٣٤٨ الجزء الثانى صفحة ٢٣٨ — ٢٤٠

الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم بن محمد .

قد تقدم تمام نسبه فى ترجمة أخيه الحسن . ولد سنة ٩٩٠ تسعين وتسعمائة فى رمضان منها ، وقيل فى شعبان ، وأخذ العلم عن علماء اليمن المشهورين فى ذاك الزمن ، ومنهم والده الإمام ، وبرع فى عدة علوم ، ودرس وأفتى واشتهر فضله ، وزهده ، وورعه ، وعفته ، وحسن تدبيره . ولما مات والده فى التاريخ المتقدم أجمع العلماء عليه وبايعوه وذلك فى سنة ١٠٢٩ ، ثم كان من التأييد والنصر خروج أخيه سيف الإسلام الحسن ابن الإمام من سجن الأتراك فى سنة ١٠٣٠ وكانت مدة المصالحة التى كانت بين والده وبين الأتراك باقية ، لأنهم كانوا صاحب الترجمة بتقرير الصلح ، إلى أن انتهت المدة المعلومة فأجاهم . ولما كان شهر محرم سنة ١٠٣٦ أرسل بجيش إلى الحيمة ، ورئيس ذلك الجيش أخوه العلامة الحسين ابن الإمام ، وبث سراياه ، وكتبه إلى الأقطار اليمنية ، وتكاثرت جيوشه ، حتى حصلت فتوحات فى مدة يسيرة ، كفتح بلاد المغارب ، وريمة ، وعتمة ، وأصاب ، وحفاش ، وملحان ، وجبل قيس ، وبلاد خولان ، وكان إذ ذاك الحسن ابن الإمام فى جهات صعدة مشاغراً لمن هنالك من الأتراك ، معاضداً لصنوه أحمد ابن الإمام فاستأذن أخاه الإمام صاحب الترجمة فى الخروج من صعدة ، والوصول إلى محاربة الأتراك بالمدائن اليمنية ، فأذن له ، فعظم الأمر على الأتراك لعلمهم بشجاعته ، ورياسته ، وطاعة الناس له ، فوصل إلى نواحى صنعاء ، وضايق من بها من الأتراك ، ووقعت بينهم وبينه ملاحم عظيمة ، كانت اليد فيها للحسن ، ثم وصل إليه أخوه الحسين بجيوشه بأمر صاحب الترجمة . وفتحت جيوشهما فى أثناء هذه المدة حصن كوكبان وبلادة وثلا . ثم توجه الحسن بجيوشه إلى اليمن الأسفل ، واستقر الحسين وأحمد أبناء الإمام محاصرين لصنعاء ، ففتح الحسن مدينة أب . وبالجملة فما زال الحسن والحسين يقودان الجيوش العظيمة على من بمدائن اليمن من الأتراك ، بأمر أخيهما صاحب الترجمة ،

حتى أخرجا جميع من بها من جيوش الاتراك ، إلا من رغب إلى الجلوس وأطاع الإمام وصار من أجناده . فصفت اليمن من صعدة إلى عدن ، واستقل صاحب الترجمة بها جميعها بمناصرة أخويه المذكورين له ، وبذلهما العناية فى ذلك بعد ملاحم عظيمة ، ومعارك شديدة ، اشتملت عليها كتب السير الخاصة بصاحب الترجمة وأبيه واخوته كسيرة الشرفى ، وسيرة الجرموزى ، ونحوهما ، ولم تجتمع الأقطار اليمنية بأسرها من دون معارض ولا منازع لأحد من الأئمة قبل صاحب الترجمة .

و (مات) فى يوم الخميس سابع وعشرين رجب سنة ١٠٥٤ أربع وخمسين وألف ، وقبره بشهارة ، بالقرب من والده ، وكان مشهوراً بالعدل والمشى على منهج الشرع ، والوقوف عند حدوده ، وحمل الناس عليه مع لين الجانب ، وحسن الأخلاق والتواضع ، والإحسان إلى أهل العلم ، والميل إلى الفقراء ، ووضع بيوت الأموال فى موضعها .

* * *

عن تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن صفحة ٥٢ ، ٥٣

(الولادة سنة ٩٩٠ والوفاة سنة ١٥٠٤ العمر ٦٤)

فى سنة ١٠٣٩ فى شهر شعبان دخل السيل العظيم إلى الحرم المكى ، وأغرق البيت ، وهدم الركن الشامى والعراقى ، ومقام ابراهيم ، وجميع المقامات ، وهدم بئر زمزم وهلك منه غير النساء والأطفال ثمانية آلاف إنسان . وفى سنة ١٠٤٢ فى شهر ربيع الأول انقض كوكب قبل الظهر بساعتين ، وبعده دوت صاعقة كأنها الرعد القاصف ، وتبع ذلك طاعون عظيم . وفى خلافته وسيرته كلام يطول . ووقع فى مدته خروج الأتراك من اليمن . ثم قام أخوه أبو طالب أحمد ابن الإمام القاسم (الولادة سنة ١٠٠٧ والوفاة سنة ١٠٦٦ والعمر ٥٩) ودعوته فى شهارة سنة ١٠٥٤ ثم تنحى لأخيه الإمام المتوكل على الله اسماعيل ، وموته (أبو طالب) بصعدة فى

شهر صفر ، وله آثار حسنة من أجلها عمارة جامع الروضة المشهور شمال صنعاء بمسافة ساعة ونصف . ثم قام أخوه الإمام الأعلم المتوكل على الله اسماعيل (الولادة سنة ١٠١٩ والوفاة سنة ١٠٧٩ — العمر ٥٣) ولد بشهارة فى شهر شعبان ، ودعوته فى السنة التى عارضه فيها أخوه أحمد ، وعارضه أيضاً ابن أخيه محمد بن الحسن ، ثم وقع الاتفاق ، وسلموا إليه الأمر وكان عالماً فاضلا ثم توفى فى الروضة فى شهر ربيع الأول سنة ألف وتسع وسبعين ، ومشهده بالروضة مشهور مزور ، وفى سنة ١٠٥٤ فى ٢٠ شهر رجب وقعت رجفة عظيمة فى محل يسمى العشة ، من بلاد الأحجر ، وكانت الجبال والصخرات تسير سيراً ، وتدك ما تحتها الأحجار وكان الناس يشاهدونها .

(د) أحمد بن سعد الدين بن الحسين المسورى

عن البدر الطالع الجزء الأول صفحة ٥٨

أحمد بن سعد الدين بن الحسين بن محمد بن على بن غانم بن يوسف بن الهادى ابن على بن عبد العزيز بن عبد الواحد بن عبد الحميد الأصغر بن عبد الحميد الأكبر المسورى الزيدى القاضى الفاضل المترسل البليغ المنشىء العارف . شارك فى الفنون وتميز فى كثير منها ، وحرر رسائل وفتاوى . واتصل فى أول عمره بالإمام القاسم بن محمد عليه السلام . وأخذ عنه وكتب لديه . وكان يؤثره ، ثم اتصل بعد ذلك بولده الإمام المؤيد بالله ، فارتفعت درجته لديه ، وصار أكثر الأمور منوطاً به ، ولم يكن لغيره معه كلام . ثم اتصل بد موت المؤيد بالله بأخيه الإمام المتوكل على الله ، وشارك فى أمور ، ونقص حظه قليلا بسبب أنه بادر إلى مبايعة أحمد بن الإمام القاسم عند موت المؤيد ، ثم لم تتم تلك البيعة ، وتم الأمر المتوكل على الله . وما زال على جلالته وفخامته حتى مات يوم الثلاثاء سادس عشر شهر محرم سنة ١٠٧٩ تسع وسبعين وألف . وقبره بجوار قبر الإمام القاسم بن محمد وولده المؤيد . وقد ترجمه تلميذه القاضى أحمد بن صالح بن أبى الرجال فى مطلع البدور ترجمة نفيسة ، وأطال الثناء عليه ، ووصفه بأوصاف فخيمة . وله شهرة كبيرة بالديار اليمنية إلى الآن . ولعل

ذلك بسبب متاخمته للأئمة ، وارتفاع حظه فى تلك الدولة ومشيه فى جميع مباشرته على طريقة العلماء .

(هامش) وفى ترجمة القاضى أحمد بن سعد الدين المسورى بالمجلد الثانى من جامع المتون ، أن مولده فى سنة ١٠٠٧ سبع وألف هجرية ببلاد الشرف .

(هـ) الحسن بن أمير المؤمنين

عن البدر الطالع ج ١ ص ٢٠٥ — ٢٠٧

الحسن بن الإمام القاسم بن محمد بن على بن محمد بن على بن الرشيد بن أحمد بن الأمير الحسين بن على بن يحيى بن محمد بن يوسف الأصغر الملقب الأشل ابن القاسم ابن الإمام الداعى يوسف الأكبر ابن الإمام المنصور يحيى ابن الإمام الناصر أحمد ابن الإمام الهادى يحيى بن الحسين بن القاسم بن ابراهيم بن اسمعيل ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب سلام الله عليه وعليهم ورحمته وبركاته (ولد) بعد صلاة العشاء من ليلة الإثنين غرة شهر شعبان سنة ٩٩٦ ست وتسعين وتسعمائة ، وقرأ على جماعة من الشيوخ ، أدرك حصة نافعة من المعارف ، وفرغ نفسه للجهاد مع والده ، فنهض بما لا ينهض به غيره ونال من الأتراك ما لم ينله أحد ، وأوقع بهم وقعات متعددة ، حتى استأصلهم وأخرجهم من الديار اليمنية بعد أن حارب جماعة من كبرائهم كحيدر باشا وقانصوه باشا ، وأخذ جميع ما بأيديهم من مدن اليمن ، ووقعاته ، وملاحمه ، لا يتسع لها هذا المختصر ، وقد سرد جميع ذلك الجرموزى فى سيرته وهى كتاب حافل . ولم يكن لأحد من العناية التامة بمجاهدة الأتراك ما كان له رحمه الله . وأسر فى أيام والده ، وحبس بصنعاء ، وبقى أياماً طائلة ، ثم خرج خفية ، وهيأ الله له أسباب ذلك ، فلم يشعر به أحد ، وفيه من الشجاعة والإقدام فى المعارك ما يبهر العقول ، فإنه وحده يقوم مقام الجيش الكثير ، وقد أحاط به من قاع صنعاء أيام محاصرته لها جماعة من فرسان الأتراك المشهورين ،

وهم عدد واسع يزيد خيلهم على الألف ، فضلا عن سائر الجيش ، ولم يكن عنده إذ ذاك إلا أخوه العلامة الحسين الآتى ذكره ، ونفر يسير ، فدار القتال عليه وعلى أخيه ، وما زال يصاولهم طعناً وضرباً ، ويجندل شجعانهم حتى خرج بينهم سالماً هو ومن معه من النفر اليسير . وكم أعدد من إقدامات هذا السيد الذى تقصر الأقلام عن حصر مناقبه ، وهو نظير المطهر بن شرف الدين إذ أرفع درجة منه فى الشجاعة والرياسة ، وحسن التدبير ، وقد بلغت جيوشه فى بعض المواطن نحو ثمانين ألفاً ، وله فى الكرم يد طولى . قال السيد عامر بن محمد عبد الله بن عامر الشهيد فى بغية المريد إنه أعطى الشريف طاهر الإدريسى خمسة وعشرين ألف قرش من النقد ، ومن الجواهر ، والنفائس ما يخرج عن الفكر . انتهى . ثم بعد أن أجلى الأتراك من أرض اليمن جميعها ، اختط حصن الدافع فى حدود سنة ١٠٤٠ وعمره عمارة بليغة ، وأجرى فيه الأنهار ، وغرس فى جوانبه الأشجار ، وشيد الديار ، حتى صار مدينة كبيرة ، واستقر فيه ، حتى توفاه الله فى وقت المغرب من ليلة الأحد ثالث شوال سنة ١٠٤٨ ثمان وأربعين وألف فى خلافة أخيه الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم ، ورثاه شعراء عصره بمراثى جيدة ، منها قول بعضهم . .

وكان موته فى مدينة الحصين التى عمرها تحت حصنه المتقدم ، وله نظم فمنه ، ما قاله فى أيام اعتقاله يرغب والده فى الصلح بأبيات أولها . .

وكان يلازم فى أسفاره وجهاداته القراءة على الشيوخ ، والمطالعة لكتب العلم ، ولازم فى آخر أيامه السيد محمد بن عز الدين المفتى فقرأ عليه الأصول وغيرها وقد جمع إلى شجاعته الباهرة الكرم الفائض ، حتى كان يعطى عطاء من لا يخاف الفقر ، والحاصل أنه من أعظم سلاطين الجهاد ، وأساطين مصالح العباد .

(و) محمد بن الحسن

عن البدر الطالع الجزء الأول صفحة ١٥٩

السيد محمد بن الحسن بن الإمام القاسم بن محمد .

ولد لليلتين بقيتا من جادى الآخرة سنة ١٠١٠ عشر وألف ، وهو الرئيس الكبير ، والأمير الخطير ، ربى فى حجر الخلافة ، وترقى فى الكمالات ، حتى بلغ منها الغاية ، وقرأ على جماعة كالقاضى أحمد بن يحيى حابس ، والقاضى صديق بن رسام . ولما مات والده فى تاريخ موته المتقدم فى ترجمته ، وبلغ الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم أمره بالنفوذ إلى بلاد ضوران ، وما زال متردداً فى الديار اليمنية ، وسكن فى آخر مدته مدينتى أب وذى جبلة ، وكثر جيشه ، وعظمت ولايته ، وصار غالب الجهات اليمنية تحت ولايته ، لاينفذ فيها أمر لغيره ، وهو يمتثل أمر الإمام المؤيد بالله تديناً وانقياداً لاقهراً . ولما مات المؤيد بالله دعا صاحب الترجمة إلى الرضى من آل محمد ، فلما بلغته دعوة عمه المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم انقاد وأطاع وبايع . وولاه الإمام المتوكل على الله جميع اليمن الأسفل وهو مشتمل على مدن كثيرة ومواد المملكة فى الغالب منه ، وما زال أمره فى ازدياد ، وسعادته فى ظهور ، وأمره فى نمو إلى أن مات . وكان يجعل شطر إقامته باليمن ، والشطر الآخر بصنعاء والروضة ، وقرأ فى هذه المدة تذكرة النحوى على محمد بن صلاح السلامى ، والفقيه أحمد بن سعيد الهبل ، وقرأ الفصول اللؤلؤية على القاضى إبراهيم بن يحيى السحولى ، وفى سنة ١٧٠٩ طلع من اليمن إلى صنعاء واجتمع بالإمام المتوكل على الله ، ثم بدأ به المرض ، قيل وهو ذات الجنب ، فمات بدرب السلاطين من الروضة ، فى ليلة الخميس ، ثامن شهر ربيع الأول سنة ١٠٧٩ تسعة وسبعين وألف اسماعيل ، وأقر الإمام ولاية البلاد ، التى كانت تحت يده بين ولديه السيد يحيى بن محمد والسند بن محمد ، فمات يحيى عقب موت والده ، فبقى بيد اسماعيل جهة العدين ، فتوجه إليها فمرض عند وصوله إليها ، ومات بها . وقد رثى صاحب الترجمة جماعة من شعراء عصره ، ومن جملة من رثاه ولده اسماعيل بقصيدة مطلعها :

هل أقال الموت ذا حذره ... ساعة عند انتهاء عمره

ورثاه الشيخ ابراهيم الهندى بقصيدة مطلعها :

قضى الفخار فلا عين ولا أثر ... واحلولك الخطب لاشمس ولاقمر

وله مؤلف سماه (سبيل الرشاد إلى معرفة رب العباد) فى علم الكلام ، و(شرح المرقاة) تأليف جده الإمام القاسم ، وله جواب مبسوط فى حديث « ستفترق أمتى » على شيخ أحمد بن مطير ، كذا قال فى مطالع البدور .

(ز) أحمد بن الحسن

عن البدر المطالع الجزء الأول صفحة ٤٣

الإمام المهدى أحمد بن الحسن بن الإمام القاسم بن محمد سيأتى تمام نسبه فى ترجمة والده . ولد رحمه الله سنة ١٠٢٩ تسع وعشرين وألف ، ثم لما بلغ مبلغ الرجال ظهرت منه شجاعة ، وبراعة ، وقوة جنان ، وإقدام زائد ، ووقع منه فى أيام عمه المؤيد بالله محمد بن القاسم بعد موت والده المجاهد الحسن بن الإمام بعض مخالفة ثم عاد الأمر إلى الموافقة . واستمر فى أيام المؤيد إلى آخرها . ثم فى أيام عمه الإمام المتوكل على الله اسماعيل . وجاهد فى أيامه الجهادات المشهورة ، وأوقع بأهل البغى الوقعات المأثورة ، ودخل بالجيش مرة بعد أخرى ، إلى حضرموت ودوخ تلك الممالك ، وأذعن له سلاطين يافع ، بل وصلوا تحت ركابه إلى الامام . ثم دخل الجوف مرة بعد مرة ، وما زال فى مجاهدة ومناصرة للحق ومدافعة للظلمة والبغاة ، حتى مات عمه المتوكل ، على الله ، فاجتمعت الكلمة من العلماء والرؤساء والسادة والأكابر عليه بايعوه ووقع من قاسم بن المؤيد بعض المخالفة ، ثم عاد الأمر إلى الموافقة وكانت بيعته عند موت الإمام المتوكل على الله التاريخ الآتى فى ترجمته . واستمر كذلك مجاهداً قائماً بالدفع عن المسلمين ، إلى أن توفاه الله تعالى فى جمادى الآخر سنة ١٠٩٢ أثنتين وتسعين وألف ، وقبر بمشهده المشهور بالغراس ، وما زال مقصوداً

بالزيارة من كثير من الناس، إلى هذا التاريخ . وهو من أعظم الأئمة المجاهدين الباذلين نفوسهم لدفع المعاندين . بلّ الله ثراه بوابل رضوانه .

(هامش) : ومن محاسنه ومناقبه أنه أخرج اليهود الذين كانت بيوتهم بصنعاء خرجوا منها أرسالا ، وباعوا ما نفق من بيوتهم ، وأمر الإمام بسمر الكنيسة التى كانت لهم بصنعاء ، وإخراج ما كان فيها من كتبهم ، وأراق الخمر الذى كان بمحرابها ؛ ثم فى سنة ١٠٩١ إحـدى وتسعين وألف أمر بفتح الكنيسة ، وإخرابها ، وعمر مكانها المسجد المعروف بمسجد الجلا ، وكتب فيه القاضى العلامة محمد بن ابراهيم السحولى .

مراد كامل

سيرة الحبشة

هــذه

سـيرة الحبشة

التى ألفها سيدنا القاضى العـلامة شرف الله والدين الحسن بن أحمد الحيمى بل الله ثراه بوابل الرحمة والرضوان وأسكنه جنات تجرى من تحتها الأنهار.

آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله على ما أتانا من الإيمان والتقوى ، — ونصبه لنا من البرهان الموصل إلى التمسك بالسبب الأقوى ، وعلمنا من البيان ما يؤثر خيره للأعقاب ويروى ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة أنور من فلق الصباح وأضوى ، وأثبت رسوخاً من جبلى ثبير ورضوى ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى أسرى بجسده إلى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ، وبعثه إلى العالمين على اختلاف الأديان واتباع الأهوى ، فأخرج بعث هدايته فى رياض قلوب أوليائه عشب الإيمان فأصبح للنضارة أحوى ، وهشم به بنيـــة الطغيان فأباد حضراهم بما سن عليهم من شآبيب كل غارة شعوى ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة يبلغهم بها كل أمل ورجوى ، وسلم عليهم أجمعين سلاماً لايقحل غصن دوحته ولا يذوى .

وبعد : فإنه سألنى من وجّـه إلىّ أمل الإسعاف ، فأمرنى من لا يسعنى مخالفتـه على طريق المطابقة والإنصاف ، أن أصف ما ينبغى مذاكرته من سفرنا إلى الديار الحبشية . واتصالنا بملك الفرقة النصرانية والملة المسيحية ، عن أمر مولانا أمير المؤمنين ، وخليفة الله الداعى إلى كتابه المبين ، وأمينه على تبليغ ما أنزله على قلب جده سيد المرسلين ، المتوكل على الله رب العالمين ، إسماعيل ابن أمير المؤمنين المنصور بالله القاسم بن محمد بن رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمعين .

وكانت هذه جملة كلية ، تشتمل على جزئيات تفصيلية ، يتعين تعريف مبتدئها وخبرها ، وإيضاح ما أراده السائل من عجائب قصصها[1] وعبرها ، فأجبته إلى ذلك إيثاراً لقصده ، وقضاء لما ثبت على من حقوق وده ، ولما أرجوه من نعش هم أهل الخمول ! والحث على ارتكاب الأخطار العظيمة فى طاعة الله عز وجل وطاعة أئمة آل[2] الرسول ، ولقد ذكرت عند ذلك شعر الحسين بن على الفخى صلوات الله عليه حيث يقول :

---

(١) ل : يضيف « معا » .
(٢) ل : « حذفها » .

وإنى لأنوى الخير سرًّا وجهرة ... وأعرف معروفاً وأنكر مُنكراً
ويُعجبنى المرء الكريم نِجارُه ... ومن حين أدعوه إلى الخير شمّرا
يعين على الأمر الجميل وإن[1] يرى ... فواحش لايصبر عليها وغيّرا

وشجعنى على رقمه فى هذه الأوراق أنه ليس من التأليف المفتقر إلى كال الاجتهاد، ولا من التصنيف الذى يتطرق إليه انتقاد النقاد، لايتعلق بروايته معرفة الإسناد والإرسال، ولا المعلول والانقطاع[2] والإعضال، وغيرهما من سائر العلل التى لاتبلغ معها درجة الصحة والكمال، ولامعرفة علم الجرح والتعديل فى أحوال الرجال. وإنما هو إخبار عن مدركات الحواس، ومشاهدات النظر التى يستوى فيها الكافة من الناس، فلذلك لم أدخل فى قول من قال: من صنف فقد استهدف. وأنا أرجو أن يكون لما نويته ورتبته، عليه من حسن القصد وثبته[3]؛ لاحقاً بعلوم الدين، ناطقاً أثره بلسان صدق فى الآخرين، فإنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى — وبالله استمد الهداية والتوفيق، وأعوذ به أن أكون ممن جذبته الأهوى — فهى تهوى به فى مكان سحيق. هو أهل التقوى وأهل المغفرة، وولى الخيرات ومولها فى الدنيا والآخرة.

وها هنا نشرع فى ذكر السبب المقتضى لذلك، وهو أن هذا الملك المعروف بجهة الحبشة المسمى بلغتهم «سجد فاسلداس، ابن السلطان، سجد سينوس»[4] — ومعنى «سجد» — كما ذكره لى بعض أهل لغتهم — كثير السجود. ومعنى «سينوس»[5] من أسماء البارى عز وجل بلغتهم — وجه الى مولانا وإمامنا أمير المؤمنين وسيد المسلمين ومبيد أهل البدع المفسدين المؤيد بالله رب العالمين عليه سلام الله[6] ورحمته ورضوانه رسولا من مسلمى تلك الديار فى عام اثنتين وخمسين وألف، ووجه صحبته بهدية[7] من الرقيق والزباد وسلاح الحبشة، وضمن كتابه استدعاء

(١) ل: «فان».
(٢) ل: «بالانقطاع».
(٣) وبنيته.
(٤) اسم الملك بالحبشية ملك سجد وهو فاسيلادس بن سوسينيوس.
(٥) ل: سينسوس.
(٦) تكملة من ل.
(٧) ل: هدية.

رجل يصل إليه من خاصة الإمام عليه السلام. ولم يكن لى اطلاع على خلاصة[1] سر هذه القضية ومعرفتها، وإنما أخذت ذلك من رواية سيدنا القاضى العلامة غرة علماء الشيعة والعلامة، وجوهرة عقد أعضاء الخلافة والإمامة، شمس الملة والدين، أحمد بن سعد الدين ابن الحسين المسورى — رحمه الله رحمة الابرار[2] — سمعته يملى[3] على مولانا المتوكل على الله — أيده الله تعالى — فكان من حديثه[4] أن قال مولانا بالله سلام الله عليه، لم يستحسن المسارعة إلى إجابة هذا الملك بإرسال أحد إليه قبل المعاودة منه، وتكرار المراسلة. قال فإن عاد منه كتاب آخر بعد ذلك فلا بأس بإسعافه إلى مطلبه، وانبرم الرأى على الجواب عليه وتأخير الرسول المطلوب من أصحاب الإمام عليه السلام، فكتب جواب الملك ووجه إليه مولانا المؤيد بالله رضوان الله عليه هدية سنية وعطية فاخرة هنية، وصدر رسول[5] من الحضرة المؤيدية، مثنياً عليها بلسان الثناء، متملياً من أنوار ذلك الفضل والسناء، وتوجه راجعاً من جهة بندر «المخا» حرسه الله.

وقد أمر مولانا أمير المؤمنين المؤيد بالله — قدس الله سره — النائب فى البندر المحروس، بتجهيزه فى المراكب المعدة من جماعة العسكر المحافظين فى ذلك البندر، وإعداد عدة المحاربة فى تلك المراكب، من المدافع، والزبارط مع البنادق المتخذة سلاحاً للعسكر المنصور؛ وذلك لأجل الخوف من الأقران[6] الذين بجانب «سواكن» وبندر «مسوع» — أقمأهم الله وقطع دابرهم — فوقع التجهيز من النائب فى هذا البندر على هذا التقرير، ومطابقة هذا التقدير، وبلغوا به إلى بندر «بيلول» المعروف، بلد السلطان «شحيم بن كامل الدنكى»، ورجع العسكر سالمين لم يعرض لهم شىء من جانب الخصم بحمد الله ومنّه، وتوجه رسول ملك الحبشة إلى مخدومه بتلك الهدية، والجواب عليه فيما ذكره. وغاب هنالك الرسول سنة ثلاث وخمسين، وما بعدها إلى عام سبع وخمسين ألف. ثم إن الملك المذكور عاود مولانا أمير المؤمنين المؤيد بالله رضوان الله عليه بكتاب آخر وهدية أخرى، واستعجل الرجل المطلوب وصوله

(١) ل: خاصة.
(٢) ل: أطال الله أيامه.
(٣) ل: يضيف: ذلك
(٤) ل: يضيف: جملة.
(٥) ل: رسوله.
(٦) هامش الأقران: جمع قرن. وفى ل: الأتراك.

إليه . وذكر فى كتابه [1] معناه أن المهاداة بالمال ليس هى نفس المطلوب [2] ، وإنما هى تبع للوصول إلى نيل الغرض ، بإرسال الرجل الذى استدعى [3] وصوله ، وقد كان سبق قبل هذا وفاة حى مولانا المؤيد بالله ومصيره إلى رضوان الله ، وما عند الله خير للأبرار . فلما وصل رسول الملك إلى بعد أطراف الحبشة وبلغه خبر وفاة مولانا الإمام عليه السلام ، وأرسل إلى الملك يرفع إليه ويعلمه بما بلغ إليه ، فرجع له الجواب أن ينفذ لما أمر به ، وجعلوا كتاباً إلى مولانا المتوكل على الله أيده الله . وأمره الملك أن يبلغ الكتابين جميعاً ليكون كل واحد مؤكداً مضمون الآخر ، فوصل ذلك الرسـول إلى حضرة المولى المتوكل على الله أيده الله فى شهر (   ) [4] من عام سبع وخمسين وألف سنة ، وكان خروجه إلى بندر « المخا » ، وجاءت طريقه بطن تهامة من جانب مدينة « زبيد » — حرسها الله تعالى — ، ثم على مدينة « مور » ، و « الامروخ » ، ونفذ إلى « هجر الاهنوم » ، ووصل إلى إمامنا عليه السلام إلى حاضرة [5] « شهارة » المحمية ، ومستقر الأئمة ، وعمدة معاقل الزيدية ، فأعظم مولانا أيده الله تعالى أمر ، وأكرم مثواه ، وأحسن نزله ، فأطلع على كتبه وعرف ما استدعاه الملك من وصول رجل يفيض إليه بسر لا تحمله بطون الأوراق ، ولا تطيب نفسه أن يفضى إلى رسوله ، لما يخشاه من الحاسد ، ويخالطه من الإشفاق ، وكان فى هذا ما لا يخفى من الإجمال ، والتسبب لأن تتعلق به عظائم الآمال ، فاختص مولانا عليه الصلاة والسلام بذلك الرسول فى بعض مجالسه الخالية ، وسأله عما فى كتاب الملك ، وهل عنده ظن لمراده من ذلك : فقال الذى يبلغ إليه ظنى أنه يريد الإسلام فلما قال ذلك سر به مولانا عليه السلام [6] ولمعت أسارير وجهه الوضىء وانبسط نشاطاً خلقه الرضى . وأسر فى نفسه أن هذه نعمة جليلة ، وأمر عظيم يتوصل إلى تمامه بكل حيلة . ثم التفت بعد ذلك إلى مشاورة أهل حضرته ، واستنصاحهم فى ذلك ، وما الذى يتوجه فيه من الرأى فاتفق نظر كثير من أهـل الفضل ، وأرباب القول الفصل ، أن إجابة هذا الملك إلى وصول رجل تجب قطعاً ، ويتوجه لزومها شرعا ، حيث يعلق الطمع بإسلامه ، والإنخراط فى سلك هذا الدين ونظامه ، فإنه

---

(1) ل : يضيف « ما » .
(2) ل : المقصود .
(3) تكملة من ل .
(4) بياض بالأصل .
(5) ل : سلام الله عليه الى حصن .
(6) ل : أيده الله تعالى .

يجب إجابة من نظن فيه [1] ، ولو لم يرج إلا صلاحه فى نفسه ، كيف والمعلوم من طريق العادة أنه يتبعه الجماهير ، كما ثبت فى قضية العقل وحدسه ، وقد وقع فى ذلك الرأى خلاف من بعض أهل النظر ، استناداً الى ماثبت لديهم بالفكر وتقرر ، وهو أن هذا الملك الثابت فى تخت ملكه ، المتقرر لديه أباطيل شركه وزخارف إفكه ، لا يغلب على الظن أن هذا المنهج قصده ، ولا تحدى فيه [2] عيسه ولا يورى فيه زنده ، فاطرح هذا الرأى لما كان القائل به القليل ، والترجيح بكثرة الرجال دليل وأى دليل . لاسيما وقد طابق ذلك رأى صاحب الحل والعقد ، والإبرام والنقض . المهتدى بهداه [3] . الذى يقصر كل نظر فى مصالح الدين عن منتهى نظره ومداه ، مولانا أمير المؤمنين أيده الله تعالى بمواد التسديد والنصر المبين . مع الاستظهار لذلك بقوله صلى الله عليه [4] لأن يهدى الله رجلا على يديك خير لك [من الدنيا] [5] مما طلعت عليه الشمس . وليس الطريق الى إمكان الهداية إلا الظن . فاستقر الرأى على وجوب إجابة هذا الملك ، الى وصول رجل إليه ، يبحث عن سره ، ويطلع على حقيقة أمره . وكنت فى تلك السنة فى سفر الحج الى بيت الله الحرام ، وزيارة الضريح النبوى على صاحبه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام ، وكان من فضل الله علىّ أن هذه الحجة هى الثالثة ، فلله الحمد على ذلك حمداً كثيراً طيباً مباركا فيه ، ولما رجعنا من ذلك السفر الميمون ووصلنا الى الحضرة المولوية أعزها الله تعالى فى غرة شهر ربيع الأول من تلك السنة المذكورة ، وهذا الخـبر شائع أمره ، ذائع سره ، كنت ممن تشرف بالمفاوضة فيه من مولانا أمير المؤمنين أيده الله تعالى وكنت أجبت بما ظهر لى من النظر وسنح لدىّ من خاطر الظن الذى حضر مما يطابق رأى الأكثر وكان مولانا أيده الله يحرر النظر فى تعيين الرجل الذى يتوجه الى تلك الديار ، ويدبر [6] فى ذلك جلائل الأنظار ؛ ولا أدرى هل وجه نظره قبل التعيين [7] على الى غيرى أم لا ، ثم إنه أيده الله تعالى أراد أن يخصنى بفضيلة هذه العزيمة ، ويقلدنى القيام بهذه الفريضة العظيمة ، وعلمت أنه أيده الله تعالى قد أدلى الىّ بحسن ظنه ، وأن ذلك من فضل الله ومنه . فأجبته الى ذلك . وسألت الله عز وجل أن يرفع لنا أنوار هذه

---

(1) ل : يظن فيه ذلك .
(2) ل : « فى » .
(3) ل : « به » .
(4) ل : نضيف : «وعلى آله وسلم»
(5) ل : بحذف هذه العبارة .
(6) ل : ويدير .
(7) ل : التعين .

السالك، بيده الخير وهو على كل شيء قدير. ثم إن مولانا أيده الله تعالى أخذ في تعيين هدية فاخرة وعارة تليق بأحوال[1] الملوك[2] متنوعة أنواعاً، وأسنى من هدية الملك اليه وأطول باعاً؛ من خلع الديباج العجيبة، ومطارف الملوك السنية القشيبة؛ والسيوف القاضبة القاطعة، والدروع الفائضة السابغة، والبنادق الفاخرة البالغة؛ مع شيء من آلات الخيل النبيه، والأتراس المناسبة لكل حضرة رئيسه؛ ولما استكمل أيده الله تعالى ما يريد من ذلك أمر بإنشاء رسالتين، إلى الملك عظيمتين، كنت أحب إثبات ألفاظهما في هذه الجملة إلا أن إحداهما ذهبت بحريق النار الذي سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى، والأخرى التي وصلت الى الملك فاتنا ذلك [منها][3] بفواتها من أيدينا، ولم يخطر بالبال رقمها[4]. وقد كان مولانا أيده الله أودعنا ما اقتضاه حسن نظره وكمال تدبيره وهو أن قال: إذا انتهيتم إلى هذا الملك أظهرتم له هذه الرسالة الظاهرة المتضمنة الجواب عليه وذكر الهدية، وأخرتم الرسالة الأخرى حتى تجتمعوا به في موقف خال، وهو لابد يفيض إليكم ما عنده من الخبر الذي يريد إلقاءه[5]، فإن وجدتموه يريد ذلك الأمر الذي يعلق به للأمل[6]، وأنه يريد الدخول في ملة الإسلام المشرفة على سائر الملل؛ دفعتم إليه الرسالة الأخرى، وخضتم معه في ذلك على ما تقتضيه الحال سراً أو جهراً؛ وإن وجدتموه تائهاً في ضلالته، سادراً في ظلمات جهالته؛ لا سبيل الى ولوج النصيحة في لبه، ولا طريق الى تقرير ذلك في قلبه؛ أعرضتم عنه صفحاً، وطويتم عنه كشحا؛ والحاضر يرى ما لا يراه الغائب، والحازم من نفعته النصائح وأفادته[7] التجارب.

واعتمدنا هذه الوصية النافعة ووجدناها ولله الحمد لأسباب الرشاد والخير جامعة.

وتوجهنا من حضرة الإمام عليه السلام[8] في غرة جمادى الأخرى مقدمين بين يدي ذلك حسن التوكل، وخالص التوسل، والمبالغة[9] بتقوى الله عز وجل، وتعليق النية بطاعته وطاعة خليفته الإمام الأجل؛ فإن ذلك أبلغ ما يستعان به على نجاح

---

(١) ل : بمقامات .
(٢) ل : يضيف «ومكارمه الظاهرة» .
(٣) تكملة من : ل .
(٤) ل : رقمها الا بعد الذهاب .
(٥) ل : القاه .
(٦) ل : تعلق به الأمل .
(٧) ل : حذفت : النصائح وأفادته .
(٨) ل : أفضل الصلاة والسلام .
(٩) ل : والبالغة .

المقاصد الصالحة، ونمو متاجر الخير الرابحة، كما قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً)[1] وكان في صحبتنا جماعة ممن تليق مصاحبتهم في السفر من الشيعة والعسكر أهل الصبر والرعاية والمروءة والحماية، قدر اثنين وعشرين نفراً، فيهم نحو اثنى عشر[2] بندقاً. وكان مرورنا على السيدين المعظمين والرئيسين المكرمين، عز الملة والدين وجبل العلم والحلم الشامخ الحصين، وصفي الإسلام والمسلمين، وسيف الحق المنتضى على أعداء الله المفسدين محمد وأحمد ابني الحسن ابن أمير المؤمنين حفظهما الله تعالى وهما إذ ذاك بمعمور مدينة صنعاء حرسها الله تعالى وعمرها بأهل الإيمان والتقوى

وكان هذا الرسول الواصل من الملك استصحب اليهما كتابين وما تيسر من الهدية. فأجابا عليه ووجها اليه ما تسنى من الهدية مضافة إلى هدية مولانا أمير المؤمنين أيده الله تعالى. وكانت[3] هدية من أسنى الهدايا، وعطية من أجل العطايا، واستقبلنا السفر المبارك على تيسير الله وتدبيره وهو الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل والمال والولد، ولايجمعهما غيره، لأن الصاحب لا يكون خليفة والخليفة لا يكون مستصحباً.

ولما[4] انتهينا إلى بندر المخا حرسه[5] الله تعالى، وكان مولانا أيده الله تعالى قد أمر النائب فيه بتجهيز جميع العسكر المحافظين في البندر بأعظم ما يكون من الإعداد في المراكب، لما يتوهم أن[6] يعرض من الأتراك أذلهم الله تعالى، وبلقيهم[7] من بندر سواكن وبندر مسوع، ففعل نائب المخا بما أمر به، وتجهزنا من هنالك في نصف شعبان من تلك السنة المذكورة، وكان جملة سفرنا في البحر يومين فقط، والمسافة مع استواء الريح أقرب من ذلك فإنها قد تقطع في يوم واحد.

ولما وصلنا الى بندر بيلول، وكنا استصحبنا الى السلطان شحيم بن كامل الدنكلي

---

(١) الآية من سورة الأحزاب .
(٢) ل : اثنتى عشرة .
(٣) ل : فكانت .
(٤) ل : فلما .
(٥) ل : حرسها .
(٦) ل : اذ .
(٧) ل : وتلقيهم .

صاحب بيلول ، كتاباً من نائب المخا لما بينهما من الاتصال وحسن المعاملة ، وجميل المواصلة ، وكان هذا السلطان المذكور غائباً حين وصولنا إلى بندر بيلول ، فراسلناه حتى وصل ، وكنا قبل وصوله ضاربين خيامنا فى مكان خارج البلد بينهما وبين البحر ، لانا كنا أدركنا من أهل البلد تشوشاً من وصولنا فبقينا هناك حتى وصل سلطانهم شحيم بن كامل المذكور ، وقد كان خرج فى صحبتنا جماعة من تجار الحبشة ، ولما وصل السلطان شحيم بن كامل تلقانا بالكرامة ، وسنى الضيافة ، واطلع على أخبارنا ، وعلم أنا نريد الوصول إلى ملك الحبشة ، وكان هذا السلطان شحيم ممن له اتصال بملك الحبشة ، لانه إنما نشأ فى ديار الحبشة وله هنالك أهل وأولاد ، والملك يعده من خاصته وأهل بطانته كما هى قاعدة من هنالك ممن يدعى الإسلام وليس له منه إلا نفس الاسم ، الذى لا يترتب عليه شىء من الاحكام كما سيأتى تحقيقه فيما يعرض من ذكر من يطلق عليه اسم الإسلام هنالك ان شاء الله تعالى .

ولما اجتمعنا بالسلطان شحيم وقد معه من رجال البدو المتصلين بذلك المحل خلق كثير ، منكرين الصور ، خالين عن التخلق بشىء من أحكام الشرع الشريف المطهر ، وذلك لما شاهدناه من اختلاط رجالهم بنسائهم وكلهم عراة لا يسترون عوراتهم ، ولا يتسترون بمنكراتهم ، كأن المنكر عندهم من المعروف والبدع لديهم من الامر المأنوس المألوف ، ولسانهم أعجمى بلغة تخصهم ليست من لغة الحبشة (١) فكنا اذا خاطبناهم نفتقر الى ترجمان وقليل معنا من يعرف لغتهم كل المعرفة الا من كان يتصل ببندر المخا فإنه ربما عرف اللسان العربى ، وكل من يجىء الينا من هؤلاء البـــدو المذكورين ، يريدون مجرد الاطلاع ومعرفة هؤلاء العرب الوافدين ، فإذا وصلوا الينا جعلوا ينظرون الينا من بعد ، وهم يتعجبون بالنظر الينا ، ونحن بالنظر اليهم أعجب ، «أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا» (٢) .

ولقد حكى لنا بعض العارفين بأخبارهم أن كبيرهم الذى يقتدون بأقواله متزوج باثنتى عشرة امرأة ، وغيره يعمل مثل ذلك على ما ظهر لنا من النقـل ممن يعرف

(١) يقصد لغة الدناكل . (٢) الآية من سورة الفرقان .

أحوالهم ، ومع هذا فإنهم يريدون الاطلاع على أحوالنا والتجسس عليها ، وهل يمكنهم الوقوف لنا على الطريق التى نمر فيها ، والوصول الى شىء مما فى أيدينا ، أو غير ذلك مما يفعله المختلسون (١) والأكراد والمتخطفون من الفساد .

وكان من فضل الله علينا وما أمد الله به إمامنا عليه السلام من حسن النظر ، وكمال الرأى ، استصحاب البنادق ، فإنها من (٢) صنع الله لنا وبركة مولانا أيده الله تعالى ، دفعت عنا المكروهات ، وكانت لنا مع عون الله من أعظم المعونات ، ولقد كانوا يعجبون من رمى البندق غاية العجب ، وأحسب فيما ظهر لى أنهم يعتقدون أن صاحب البندق إذا رمى يتمكن من متابعة الرمى من غير انقطاع ولا تخلل وقت بين كل رميتين ، ونحن مع هذا التوهم نوهمهم صدقه ونحرص ألا يظهر لهم خلافه ، فما يزالون يتحدثون بذلك ، وينقلونه لاصحابهم بالأخبار المتداولة حين شاع ذلك فيهم وذاع ، وملأ القلوب والاسماع .

ثم إذا بقينا فى بيلول هذا نحو شهرين ، نلازم صلاة الجمعة والجهر بالخطبة لمولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله رب العالمين (٣) أيده الله تعالى وصمنا هنالك شهر رمضان المعظم وخرجنا لصلاة العيد ، والسلطان شحيم بجمعه وأصحابه ناشرين الاعلام ، مظهرين شعائر الإسلام ، وصلينا فى جبانة البلد ، وخطبنا كذلك خطبة العيد المأثورة مع ذكر الإمام عليه السلام ، والدعاء له جهراً على رؤوس الانام .

ثم لما كان بعد العيد المذكور بنحو (٤) ثمانية أيام توجهنا من بيلول وفى صحبتنا هـذا السلطان شحيم بجماعة من أصحابه نحو ثلاثين نفراً فقط ، وأهل القافلة من الجيوش (٥) يبلغون كذلك ثلاثين نفراً ، وسبب هذا التحير فى بيلول أن هذه الطريق كثيرة الأخطار من كل وجه ، منها أنها مفاوز منقطعة عن الماء وإنما يعرف مواقع المياه الدليل الماهر والعارف الخابر ، وقليل ما هو ، لعدم الاختلاف فيها ثم إن أهل الامانة فيهم قليل فإن الدليل إذا شاء سلك بالناس حيث لا يوجد الماء فإن

(١) ل : المختربون . (٢) ل : مع .
(٣) ل : بحذف رب العالمين . (٤) ل : نحو .
(٥) ل : الجيوش .

شاء أهلكهم وإن شاء تحكم فى أموالهم ما يريد ، ومنها الخوف من هؤلاء البدو المتصلين بهذه الطريق ، ومنها الخوف الأعظم من القالة — أبادهم الله — لإمكان وصولهم إلى هـــذه الطريق فاحتجنا إلى المبالغة لنفى هذه المخاوف وسد أبوابها ومراسلات كبار البدو بنظر السلطان شحيم ، وبذل الأموال لهم .

وبعد أن تقررت الأمور بحسب الظن وقدر الإمكان ، توجهنا فى ذلك الوقت من بيلول فى أرض مستوية كثيرة الأشجار ، نحو مرحلتين ، ثم دخلنا بعد ذلك فى أودية ، بين جبال عالية ، وفيها ماء جار وفى هذا المحل جاء إلينا من أخبار البدو أنهم يريدون غزونا فى تلك الليلة ، فأمرنا الناس ، فى تلك الليلة بالاحتراس ، وأن يكونوا على أهبة ، فكان من عجائب الاتفاق ، انها جاءت أربعة فيلة فى تلك الليلة ، فأدركها الحرس وسمعوا حسها فى ذلك الوادى ، ففزعوا منها فاجتمع الناس بعضهم إلى بعض ثم تبينا الأمر فإذا هو تلك الفيلة ، فرمت عليها البنادق فسمع أولئك البدو رمى البندق ، فأرهبهم وأرعبهم وفرق شملهم وبدد جمعهم ، ولقد أخبرنا رجل ممن بلغ اليه حقيقة أمرهم ، أن قدر الجمع الذين كانوا اجتمعوا لذلك خمسمائة رجل ، فسبحان الملك القدير ، الذى حالت قدرته بينهم وبين ما أرادوه . واتصل بعد ذلك سيرنا وتوالت أيام سفرنا ، قدر اثنتى عشرة مرحلة ، حتى وصلنا محلا يسمى «عين ملى» وهذا المحل وما بعده أعظم خطراً ، وأكثر مخافة لقربه من القالة أقماهم الله تعالى ، وقطع دابرهم وحال ذلك الوادى من الوحشة وعظيم المخالفة . كما قال سحيم ابن وثيل شعراً[1] :

مررت على وادى السباع ولا أرى ... كوادى السباع حين يظلم واديا
أقل به ركب أتوه تأيه ... وأخوف إلا ما وقى الله ساريا

تنبيـــه :

اعلم أن هؤلاء القالة أمة شديدة البأس ، متينة المراس ، كثيرة العدد ، بعيدة الأمد ، إذا توجهوا للحرب على أحد من الناس من الكفار وغيرهم كالمسلمين فى جهة

(١) ل : يحذفها .

مدينة «أوسة» وما اليها ، فقد يبلغ عددهم نحو مائة ألف أو ما يوازى ذلك . ثم إنهم مع هذا أهل قوة فى أبدانهم ، وصبر على طول الأسفار واحتمال المضار . ولقد حكى لى من له خبرة بأحوالهم أن الرجل منهم إذا صرخ بأعلى صوته عند ملاقاة الحرب ، وسمع ذلك بعض الكفار من النصارى ، انفلق قلبه فيموت من نفس الصوت . وعلى الجملة أن هـــذه الأمة رأيت أوصافها تلحق بأوصاف التتار ، على[1] مانقله عنهم أهل التواريخ والأخبار ، ومنهم[2] مسلطون على نصارى جهة[3] الحبشة من جميع جهاتهم ، وأطراف بلادهم ، لا تجد جهة من جهاتهم خالية عنهم ، وأكثر السبى إنما يكون بأيدى هذه[4] القالة وهو من غيرهم نادر . انتهى .



رجعنا إلى ما نحن فيه[5] بصدده ثم إنا أقمنا فى هذا المحل المسمى «عين ملى» قدر شهر كامل ، وقد كان هذا السلطان شحيم قدم رسولا[6] من هؤلاء البدو إلى بعض أمراء مالك الحبشة المتولى على أقرب قطر إلينا من بلاده يخبره بقدومنا وأنه يتلقانا إلى محل معين قد عينه له ، بمن أمكنه من جموع النصارى ، وهذا الكتاب قد كان سبق من أيام إقامتنا فى بيلول ، ورجع جوابه إلى هذا المحل المسمى «عين ملى» . وبعد رجوع الجواب عليه أظهر المسرة العظيمة ، وضرب عليها بالنقارة ، واجتمعوا للعب الذى يعتادونه عند حصول المسار ، وأراد بذلك السلطان شحيم تبشيرنا ، وإدخال المسرة علينا ، وتهوين الشدة ، وتخفيف أثقال تلك المخافة .

ثم بعد ذلك أمر السلطان شحيم بالرحيل ، فارتحلنا وهو فى صحبتنا وسار معنا بعد ذلك قدر خمس مراحل ، ثم إنه أشعرنا أنه يريد الرجوع من هنالك ، لأنه إذا جاوز ذلك المحل لم يتيسر له العود منفرداً ، بأصحابه خوفاً على نفسه ومن معه ، لأنه فى التحقيق لا يتم له السلوك فى هذه الطريق إلا مع انضمامه إلينا ، وتقويه

(١) ل : فى .
(٢) ل : وهم .
(٣) ل : تحذفها .
(٤) ل : هؤلاء .
(٥) ل : تحذفها .
(٦) ل : كتابا مع رسول .

بقوة التي أمدنا الله تعالى بها وألقاها فى قلوب الناس فضلا منه ونعمة علينا ، ثم أنه جمعنا نحن وأهل الحبشة الذين فى القافلة وأخبرنا أنه يريد أن يجعل معنا من يدلنا فى الطريق ، ويجنبنا مخاوفها وأخطارها ، وكان هناك ثلاث طرق إحداهن ظاهرها الأمان من القالة ، والثانية تجوز فيها المخافة منهم ، والثالثة مقطوع بخوفها وخطرها لكونها فى جانب القالة وبين مراعيهم ومختلفهم[١] ، فاختلف رأى أهل الحبشـــة فى الطريق . فرسول الملك الواصـل بكتابه إلى الإمام عليـه السلام[٢] يريد سلوك هذه الطريق المأمونة ، وإن كانت بعيدة المسافة وسائر الحبشة[٣] ، يريدون سلوك الطريق الوسطى مع تجويز بعض الخوف ، وكلهم لا يريدون سلوك الطريق الثالثة ، فقال السلطان شحيم يجعل لكل فريق منكم دليلا يدله على طريقه التى يريدها ، فطلب لنا رجلا جمع بيننا وبينه . وأخذ[٤] عليه عهداً لا خاننا ولا خدعنا ، ولا سعى لنا فيما فيه ضررنا ، وأهل[٥] الحبشة رجلا[٦] كذلك ، ثم قال لنا بعد هذا يكون سيركم أنتم وأهـل الحبشة مرحلتين مجتمعين ، ثم تفترقون بعـد ذلك ، فدليلكم يدلكم فى هذه الطريق المتواطأ عليها . وأهل الحبشة فى طريقهم كذلك ، فقلنا له وللدليل هل بقى بعد ذلك[٧] المحل أحد من البدو نخاف اعتراضه لنا فى الطريق ، ونطلب منه[٨] الصحبة أم لا ، فقال السلطان شحيم ، وهذا الدليل المذكور ليس بعد هذه إلا أرض مقفرة حتى تصلوا أرض الحبشة ، فودعنا[٩] السلطان شحيم وأصحابه فى ذلك المحـل ، وعزمنا على سيرنا مع ذلك الدليـل ، وكنا جميعاً نحن وأهل الحبشة ، بناء منا أنا لا نفترق عنهم إلا[١٠] بعد يومين ، كما ذكره السلطان شحيم ، فاستمر بنا السير[١١] ثلاث مراحل متوسطة ليست بالكبار ولا بالصغار ، وانتهينا إلى جنب جبـــل عظيم أبلغ ما يكون من العظم فى الانبساط

---

(١) ل : ومخاليفهم .
(٢) الصلاة والسلام .
(٣) ل : أهل الحبشة .
(٤) ل : وأخذنا .
(٥) ل : ولأهل .
(٦) ل : رجلا آخر .
(٧) ل : هذا .
(٨) ل : ويطلب منا .
(٩) ل : فتودعنا .
(١٠) ل : نفترق عنهم .
(١١) ل : يضيف « كذلك » .

والارتفاع ، ووجدنا هنالك بحيرة يتصل ماؤها بذلك الجبل ، وبجبال أخر فى[١] أطرافها ، ماؤها مالح زعاق ، وطولها وعرضها مستويان فى التقدير ، وقياسها بالمساحة نحو بريدكامل أو يزيد عليه قليلا ، فيما يغلب به الظن ، فلما وصلنا ذلك المحل رأينا من الدليلين مساررة فى القول : وأدركنا منهما دلائل الخيانة ، فطلبنا دليلنا ولاطفناه فى العبارة ، ومهدنا[٢] له فى القول ، لعلمنا أنه قد صار المتصرف بنا كيف شاء . فلم يجب علينا بجواب تطيب به نفوسنا ، وإنما هو يغالطنا ويماطلنا ، فتحيرنا فى ذلك المحل ثلاث ليال ، على مافيه من عظم الوحشة ، وكثرة السباع فى الليل ، وخوف القالة ، ففى ذلك المحل — وما بعده — كنا إذا أردنا إيقاد النار تحيلنا فى سترها عن[٣] جانب القالة ، إما بمكان مطمئن ، أو بأن نجعلها جنب صخرة أو نحوها ، لأنهم يرون النـــار فيغزون عليها ، ويترصدون المسالك ، فلم نشعر ونحن فى خلال هذه الإقامة جنب ذلك الجبل ، إلا وقد انصب علينا من أعلاه ثمانية أنفار ، فوصلوا إلينا ، واجتمعوا مع الدليلين فى جانب منا يتشاورون[٤] فى الحـديث ، وما[٥] يضمرونه من السر الخبيث ، وأظهروا لنا أن هذه البلاد بلاد هؤلاء القوم ، والتصرف لهم فيها مثل غيرهم من البـدو الذين مررتم عليهم ، وهم يحتاجون إلى صحبة ، ويعزمون[٦] مع القافلة ، فقلنا لهم : أليس قلتم لنا : إنه لم يبق أحد فى هذه الطريق ممن نخاف اعتراضه وتحكمه فينا ؟ فكيف ظهر لنا خلاف قولكم ؟ فقالوا ما شعرنا نحن بهم إلا حين وصلوا ، وكان[٧] حدوث ذلك علينا وعلى أهل القافلة أعظم الخوف ، خشية[٨] أن يفضى بنا الحال إلى غير ذلك بعد أن ظهر لنا خيانة الدليلين ، وأنهما لا أمانة لهما ، فصرنا فى حيرة عظيمة لا يطلب[٩] فى تفريجها إلا الله عز وجل ، ولا نرجو غيره لذلك الحادث الذى نزل ، ولم نجد بدآ من تسليم ما تيسر من المال لأولائك الجماعة ، ثم ارتحلنا ونحن نسألهم عن الطريق التى نريد سلوكها ، فما رأيناهم سلكوا بنا طريقــاً واحدة ، فتركنا

---

(١) ل : من .
(٢) ل : وتهيدنا .
(٣) ل : من .
(٤) ل : يتسارون .
(٥) ل : وبمـا .
(٦) ل : ويغرمون .
(٧) ل : فكان .
(٨) ل : لخشية .
(٩) ل : نطلب .

سؤالهم عن ذلك ، وشغلنا عنه التفكير فيما ينتهى إليه حالنا مع هذين الرجلين الخائنين الناكثين . فبينما نحن نظن أنا نساق إلى الموت ، وكنا فى سيرنا نتوجه إلى ما بين القبلة وجهة المغرب ، فرأينا الطريق التى مالت بنا إلى جهة المغرب [١] ، ثم بعد ذلك مالوا عن المغرب قليلا ، فعلمنا أنهما قد تاها بنا فى غير الطريق المقصودة ، وأنهما قد عزما على الخيانة ونكث العهد ، وقد كانا قدما إلينا من القول ، أن نحمل الماء لمسافة يومين ، فلما انتهنا فى هذه المرحلة إلى المحل الذى فيه النزول ، وكنا فى أعقاب القافلة والدليلان فى أولها فوصلنا وأهل الحبشة قد تواثبوا على هذين الدليلين ، وأولئك الجماعة الذين معهما وقالوا لهم : قد غدرتمونا ، وهذه الطريق التى نحن نفر منها ، وهذه محال القالة ومراعيهم ، فلم يجيبوا عليهم ، إلا أن قالوا : أما غير هذه الطريق ، فليس فيها شيء من الماء ، فلم نرجع بعد ذلك إلا إلى الله عز وجل والتوسل إليه ببركة إمامنا عليه السلام [٢] فهو خير ما به نتوسل [٣] . واختلاف الرأى بيننا وبين أهل القافلة بما لا تسعه هذه الكراسة ، وقطعنا بحصول الهلاك ، إما بالعطش ، أو بالجوع لنفاد الزاد ، أو بأيدى القالة ، ونحوهم [٤] . فأصبحنا ذلك اليوم فى مسير [٥] فى تلك الطريق ، وقد كان [٦] أمير الملك الذى سبق إليه كتاب السلطان شحيم قد أرسل رسولا يقف فى أعلى جبل [٧] يستطلع أخبارنا ، وهل يرى ما يدل على ظهورنا من أى جهة ، إما بظهورنا أو غيرها ، وقد أعد ذلك الرسول زاده معه وصار ينتقل فى جبال تلك الأماكن ، وقد كان أدرك ظهور النار فى شاطىء تلك البحيرة التى قدمنا ذكرها من رأس جبل عال على قدر مرحلتين للبريد ، ومعه جماعة قد استصحبهم من يخالط القالة ، وهذا الرجل خبير بتلك القفار ، معاود فيها التسيار ، يستحق أن يقال فيه المثل السائر : « أهدى من دعيميص الرمل » ، فأصبحنا ذلك اليوم إلى وادى فيه ماء جار ، وهذا الوادى ترعى فيه القالة فى أكثر أحوالهم ، إلا أنهم كانوا فى ذلك الوقت فى جانب بعيد عنه ،

---

(١) ل : تضيف « مقابلة » .
(٢) ل : أفضل السلام .
(٣) ل : يتوسل .
(٤) ل : أو نحوهم .
(٥) ل : نسير .
(٦) ل : وكان .
(٧) ل : جبل عال .

بسبب أنهم فى العادة ينتقلون بمواشيهم لطلب المرعى ، ولما أراد الله عز وجل لنا من السلامة [١] ، فلما رآنا هذا الرجل دخلنا ذلك الوادى انحدر إلينا من الجبل بمن معه ، ولما بصرنا به منصبا [٢] فزعنا منه ، واعتقدناه عدوا يريدنا ، فتأهبنا للقاتلة ، وأمرنا أهل البنادق بإحضار أنفسهم ، فرأينا أحدهم قد انفرد قبلهم يشتد إلينا ، ويتكلم بلسان الحبشة ، فعرف قوله من كان من أهل الحبشة ، وعلموا أنه رسول ذلك الأمير : فقالوا لنا : البشارة ، هؤلاء أصحابنا ، فكان ذلك لنا من بعد الفرج الشدة ، ثم إنا ما شعرنا بهؤلاء الجماعة الذين خانونا إلا وقد انسل بعضهم هاربا ، ولم يبق منهم إلا رجل فأسره أهل الحبشة ، وربطوه ، وقالوا تأخذون [٣] منه المال الذى قبضه ، فلم نستحسن ذلك وأبقينا عليه ، لأجل ما نخشاه من العود فى هذه الطريق ، وأن تكون عاقبة المضرة عايدة علينا ، ولما وصلنا هذا الماء فى ذلك الوادى ، وشربت منه مواشينا هلك بعضها لانقطاع بطونها من كثرة الماء الذى شربته ، ثم إن هذا الرجل الذى وصل إلينا أخبرنا بأخبار سارة ، وهى أن الأمير الذى بعثه ، أمره أنه متى أن [٣] اتفق بنا بعث إليه رسولا ، يعلمه ليتلقانا بعسكره ، ففعل كما أمر ، وأمرنا بسرعة الارتحال من ذلك المحل ، وأمر أصحابه أن يكونوا فى أعالى الجبال ، من يمين وشمال ، ليكونوا عيونا ، وأحسن التدبير فينا ، وكان ينزل بنا فى أماكن حصينة ، لا يكاد يرتقيها القالة ، لأنهم يذكرون عن القالة أن الذى يلوذ بالجبال لا يطلبونه ، ولا يعبأون به ، وإنما يأخذون من وجدوا [٤] فى سهول الارض ، فكان ذلك الخبر عنهم يؤنسنا ويشد عزيمتنا ، مع حسن التوكل على الله عز وجل ، وما نحن عليه من اليقين ، والإلتجاء إليه ، والاعتماد عليه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وإلا فإن الحال أعظم وحقيقته مما لا يضبطها القلم ، واستمر بنا السير فى صحبة ذلك الرجل ومن معه قدر أربع مراحل ، ثم اجتمعنا بهذا الأمير المذكور المسمى بلغتهم « أحد أنبسه » [٦] . هذا اسمه العلم ، ولقبه بعل جادة [٧] ، وهذا اللقب يتسمى به كل من يتولى ذلك القطر

---

(١) ل : السلام .
(٢) ل : منصبا الينا .
(٣) ل : يأخذون .
(٤) ل : تحذفها .
(٥) ل : وجدوه .
(٦) فى هامش ل : أحد أنبسه ومعنى هذا الاسم واحد من الأسود .
(٧) بعل جادة وهو لقب ، حبشى صحته « بلا تنجاته » .

من قبل ملك الحبشة . ولما وصلنا إليه وجدناه متعلقاً بجبل صعب المرتقى ، فلما رآنا نزل(١) إلينا واجتمع بنا فى بطن الوادى ، وضرب فيه خيمته ، واجتمعنا فيها ، ولما ضربت البنادق وفيها الرصاص وكان لها صوت عند خروجها ، هالهم ذلك ، واستعظموه ، ولقد رأيناهم مع جمعهم العظيم ، إذا ضربت البنادق انحطوا برؤوسهم راكعين إلى الأرض ، ولما وقعت أبصارنا عليهم رأينا صوراً قد أذهلها الله عز وجل ، وألبسها لباس الصغار ، وهم ينظرون إلينا كالمبهوتين ، ويتمللون تململ الأذلين ، كأن السلطان لنا عليهم ، وهذا الأمير رجل أشيب . مكشوف الرأس على قواعد أهل الحبشة ، مطول الشعور ، والأظفار ، أشبه شيء بكبار القردة ، غير إنى رأيته بعد أن عرفت حال غيره أحسن أهل الحبشة رأياً . وتدبيراً ، وصبراً ، وسياسة ، وقد كان استصحب معه من الطعام المصنوع ، والدقيق ما تقضى منه حاجة الناس ، فأمر إلينا بذلك ، ثم قال يأكل الناس من الطعام الحاصل ، ولا يصنعون شيئاً من الدقيق ، لأن الإقامة مقدار الاشغال بمعالجة الطعام خطر عظيم ، ففعل الناس ذلك وأسرعوا فى الارتحال .

ثم استمر سيرنا صحبة الأمير « بعل جاده » قدر خمس مراحل ، حتى وصلنا أول بلد من بلاد الحبشة ، وهى قرية بين جبلين عظيمين عندها نهر عظيم ، يسمى « وسمه » ، فى ولاية هذا الأمير المذكور ، وهى طرف بلاده ، وثغر من ثغورها ، عليهم التزام حراسة القافلة فى كل شهر عشرة أنفار ، يتناوبون فى جبل يسمى « كحل » ، لأنه على مسلك القافلة لا ينفذون إلى بلاد النصارى من غيره ، فإذا علم هؤلاء الحرس بتوجه القافلة تولوا إلى قومهم منذرين ، فيلوذون بالهرب إلى رؤوس الجبال ويخلون بينهم وبين بيوتهم ، وما نقل من الأموال .

تنبيـــه :

اعلم أن هذه العبارة السابقة لم تشمل ما لا ينبغى إغفال ذكره من صفات هذه البلاد التى كان سفرنا فيها من « بيلول » إلى بلاد الحبشة ، وما قاسيناه فيها من الشدة الشديدة ، والأهوال العديدة ، فأعظمها بعد الذى وصفناه من الخوف انقطاع

(١) ل : انحدر .

الزاد بسبب إقامتنا الطويلة فى « بيلول » ثم فى « عين ملى » ، مع تحيرنا فى غيرها ، مقدار اليومين والثلاث ، وهذه التحيرات ما كانت معروفة لنا فى ابتداء سفرنا ، فنعد لها الزاد المبلغ ، فاستغرقنا الزاد مع هذه التحيرات ومع تجويزنا السفر كل يوم ، ولما تقاصر الزاد وكانت هذه البلاد لا يعرف فيها وجود الطعام ، ولا يزرع فيها شيء من الحبوب ، وإنما نفقاتهم اللبن والسمن واللحم ، وكنا نحن ومن معنا لا نعد ذلك من معتاد النفقة ، على أنا قد اعتمدناه لعدم غيره ، حيث نجده ، وفى أكثرها هو غير موجود ، إلا أنا فى هذه البلاد المقفرة نشترى لها الغنم ، ونعدها معنا ونذبح منها ، ولكن قلما ينفع ذلك كنفع الطعام ، ولا دفع المشقة التى أوهت القوى ، وأنحلت الأجسام ، ولقد كان جماعة العسكر يتبعون ثمر الأشجار ، وأكثرها نفعاً لهم ثمر الدوم(١) المعروف بالبهش ، وليس بالدوم الذى هو ثمر(١) السدر ، وكانوا يستصحبونه زاداً فى بعض المراحل حيث يخشون انقطاعه ، ثم بعد هذا حقارة الماء ، وانقطاعه فى كثير من المراحل ، فقد نحمله فى بعضها باليومين(٢) كاملين ، ولا نجده إلا فى الثالث ، ثم إن فى خلال إقامتنا فى عين ملى ، تلك المدة الطويلة ، كانوا يأتون به من بعد على مقدار نصف البريد ، حتى إن الذى يغدو للماء بعد صلاة الفجر لا يرجع إلا وقد آن وقت الظهر ، ومع هذا كله سوء مخالطة من يخالطنا من البدو المذكورين ، وما نشاهده منهم من البدع فى الدين ، وكثير ما ينفق(٣) بيننا وبينهم من الأسباب ، ما يثير دفائن شرهم ويظهر معه سوء مكرهم ، ولا يفزعون إلا إلى أسلحتهم ، ومن(٤) معنا كذلك ، وقع ذلك مرات متعددة لولا دفاع الله ، وحمايته وكفايته(٥) ، وكلايته ، فالحمد لله الذى نجانا من مكرهم ، وحال بيننا وبين شرهم ، حمداً يوازى عظيم نعمته ، ويكافى ما لا نحصيه من جلائل فضله ، ولطفه ، ورحمته ، ولا حول(٦) إلا بالله العلى العظيم . فأيده فى تقدير مسافة هذه الأرض المتوسطة بين ساحل بحر « بيلول » وبين بلاد ملك الحبشة وقياسها — على تقدير غالب الظن — مسيرة شهر للقوافل ، يزيد قليلا أو ينقص قليلا ، وفوق كل ذى علم عليم .

* * *

(١) ل : من « الدوم ... ثمر » محذوف .
(٢) ل : ليومين . (٣) ل : يتفق .
(٤) ل : ومن كان . (٥) ل : يحذفها .
(٦) ل : حول ولا قوة .

ثم نعود إلى ما نحن بصدده : ولما انتهينا إلى هذا المحل المسمى « وَسَمْسَه » على وزن زنبه ، توجهت الرسل من هنالك إلى الملك من الأمير بعل جاده ورسول الملك الواصل الى الامام عليه السلام ، يخبرانه بقدومنا الى بلاده ، سالمين من الأشرار ، فى حماية من العزيز القهار ، ويستأذنونه بكيفية سيرنا فى بلاده ، وما يتوجه على أهل البلاد من الضيافات وغيرها ، وكان ذلك فى مشارق عيد الحجة الحرام من تلك السنة المذكورة ، ثم تقــدمنا صحبة ذلك الأمير المذكور ، إلى محلته ومسكنه ، وقرية مستوطنه فى جبل عال اسمه « حنطالوه » ، واسم هذه البلاد على عمومها « أندرته » ، وهى بلاد مستوية ، كثيرة العشب ، والنبات ، متسعة الخيرات ، كثيرة العسل ، ولقد كنا نشترى منه بالشقة السودى من بز المراودى ، ما يزيد على أربعين رطلا صنعانيا ، من الشهد الأبيض الذى ما رأت العين مثله ، وأقمنا فى ذلك المحل أربعين يوماً ، وكانت صلاة عيد الحجة فيه ، خرجنا لها إلى ساحة البلد ، واجتمعنا ومن انضم إلينا من المسلمين ، وأقمنا الصلاة وهم ينظرون الينا ويتعجبون مما نحن فيه ، كما نتعجب مما هم فيه ، ووصل الينا الى ذلك المحل الفقهاء « آل كبيرى صالح » ، عرفوا بهذا الاسم ، وهو اسم تعظيم ، يسمون به الرجل المعتقد ، وكان بأيدينا كتاب اليهم من مولانا أمير المؤمنين أيده الله تعالى ، وكسوة سنية فاخرة لايقة بحال أمثالهم ، فدفعنا اليهم الكتاب وسلمنا اليهم تلك الكسوة ورأينا عليهم سيما الصلاح ، ونور الإســلام ، فسررنا بهم غاية المسرة ، وكان بعضهم يعرف لسان العرب ، فما برحنا نسألهم ، عن أمور نحتاج الى معرفتها ، ونستعين بعلم حقيقتها ، ووصل معهم[1] رجل آخر اسمه « كبيرى خيرالدين » له معرفة جيدة بمذهب « ش »[2] رضى الله عنه وهو أفقه من « آل كبيرى صالح » ، وهم أشهر منه فى تلك الجهة لعلو منصبهم ، وهم جميعاً على مذهب الإمام « ش »[2] رضى الله عنه ، ولما مضى أربعون يوماً اقامة فى ذلك المحل ، رجع جواب الملك صحبة رجل من أهل خدمته ، وصحبته[4] خمســة أنفار ، وحين عرف الأمير بعل جاده ، بوصول رسول الملك أنه صار فى طرف بلده خرج اليه مناقياً له على قواعدهم فى رسل الملك أنهم يتلقونه[5] ، هكذا ويقرأون الكتب فى المحل الذى

(١) ل : معهم أيضا .
(٢) ل : الشافعى .
(٣) ل : وصحبة .
(٤) ل : يتلقونهم .

يلقونهم فيه ، فقرأ كتاب الملك وهو قايم[1] . ثم رجع ، ووصل إلينا يخبرنا بما قال[2] الملك فى كتابه ، وما أمره به وغيره من أهل الطرقات من اكرامنا[3] ، والقيام بما يتوجه من حق الضيافة لنا ، والصحبة فى الطرقات فى الأماكن المخوفة فشكرنا ذلك للملك وأحسنا مخاطبة رسوله بما يليق بذلك المقام ، ثم إن الأمير بعل جاده صاح بأهل بلاده ، أن يصلوا اليه بما نحتاجه من الظهر لحمل أثقالنا . فسارعوا الى ذلك ، وتوجهنا للوصول الى الملك ، وكان[4] سفرنا حتى خرجنا من بلاد « أندرته » ثلاث مراحل ، ثم وصلنا الى بلاد « السحرت » ، وتلقانا أمير تلك البلاد رجل اسمه « اسحق » ، واجتمع الأمير المسمى اسحق ، بالأمير بعل جاده ، وقد دخل فى دين الإسلام رجل من أصحاب بعل جاده[5] فقبلنا منه ذلك ، واعتقدنا أنه يتكتم أمره ، فظهر خبره ، وكان أصحاب بعل جاده حاولوا الأخذ عليه بالرجوع الى دينهم ، فمنعهم بعل جاده وقال هو باختياره اذا أحب الدخول فى دين الإسلام فلا نعترضه ، فلما وصل الأمير بعل جاده محل هذا الأمير المسمى اسحق ، سأله عن شأن هذا الذى أســلم وقال لبعل جاده كيف تترك هؤلاء يغيرون ديننا ؟ مثل هذا لا يحسن ونحن عازمون على قبض هذا الرجل الذى خرج عن ديننا وقتله ، فأجاب عليه الأمير بعل جاده بجواب أهل العقول الراجحة والآراء الناصحة : ألقى الله ذلك فى قلبه وقذفه فى لبه ، فقال له هؤلاء العرب أهل مروءة وأهل نجدة ، وشهامة ، يرضيهم القليل ، ويغضبهم القليل ، وما أظن أنهم يتركون هذا الرجل ، الذى دخل فى دينهم يصــل إليه مكروه ، لو ذهبوا عن آخرهم ، وأى فايدة لنا ولك بمثل ذلك ، والإساءة الى أضياف الملك . هذا معنى جوابه الذى سمعه بعض من كان متعلقاً بخدمتنا من أهل الحبشة ، بينه لنا باللسان العربى فكفه بذلك وأذله الله عز وجل ، ثم إن هــذا الأمير ببلاد السحرت ، أمر أهل بلاده كذلك بالحضور لحمل أثقالنا ، ثم طلب منهم جيشاً ، عظيما لصحبتنا فى الطريق ، لأجــل الخوف فحضر منهم نحو ألفى رجل بالحراب والخيل ، وتوجهنا من بلاده فسار بنا نحو خمس مراحل حتى اتصلنا ببلاد « أبرقلى »[6] ، وهى بلاد

(١) ل : قادم .
(٢) ل : قاله .
(٣) ل : كرامتنا .
(٤) ل : فكان .
(٥) ل : كان وصل الينا رجل فى بلد بعل جاده ودخل فى دين الاسلام
(٦) وهى بلاد أبرجلا .

وعرة ، وجبال عاليه ، وأوهاط منخفضة ، فتلقانا أمير هذه البلاد رجـــل اسمه «قباقسطوس» (١) فسارع بتجهيزنا من بلده لحقارتها ، وارتحلنا منها ، وسار بنا سيراً متصلا ، ومراحل متسعة ، قدر سبع مراحل ، كلها خايفة ، وله عيون يسيرون معنا فى رؤوس الجبال ، ووجدنا بين هذه الجبال نهراً عظيما من آيات الله الباهرة ، تلحق حكمه بنحو نيل مصر وسَيحُون وجَيحُون ، وفيه حيوانات البحر العظيمة ، ولقد وصلنا إليه وظهر لنا فيه شىء كالقبة العظيمة ، بين الماء فى جانب النهر . تخيل لنا (٢) أنها صخرة ، فلما وصلنا إليها وجدناها حيواناً ميتاً يقال له فرس البحر ، الله أعلم ما عرض لها فأهلكها . وهى فى الكبر والعظم ما لا أعرف لها (٣) نظيراً فى الحيوان ، وهذا النهر لا يتمكن المار من قطعه إلا من أماكن مخصوصة ، متسعة فى عرضها انبسط (٤) فيها الماء ، ثم تكون مستوية لا ينحدر فيها الماء لانه مع الانحدار تكون له قوة فإذا كان المكان على هذه الصفة سلك فيه المار والماء يتصل بركاب الفرس السامى ، ومقدار العرض فى قياس مائة ذراع ، وهـذا النهر ينصب ماؤه فى نيل مصر ، على ما حكاه لنا بعض أهل الحبشة ، فسبحان الملك القدير ، الذى أظهر لنا عظيم قدرته ، وأرانا عجائب حكمته وصنعته ، ثم إنا بعد تمام سبع مراحل اتصلنا ببلاد « الفلاسة » (٥) أولها واد عظيم تحت جبل عال فى نهاية السمو ، وغاية العلو ، اسم الوادى « اغنه » (٦) ، والجبل « سمين » (٧) مصغراً ، وهو أعظم جبال الحبشة ، ولو أقول أعظم جبال الأرض لم يكن بعيداً ، لأنه يوجد فى كل طريق من طرق الحبشة ، وهو شديد البرد ، لا يعرف مثله (٨) فى شدة برده ، لا يبرح الماء جامداً فيه شتاء وصيفاً ، وهذه البلاد عهدة ولايتها على بعض وزراء الملك ، وأهل الاختصاص بحضرته رجل منهم اسمه « دموه » ، وله وكلاء ونواب فى البلاد ، وأما هو فلا يفارق حضرة الملك ، وهذه القبيلة التى يسمونها « الفلاسة » قبيلة كبيرة ، من أعظم قبائل

(١) وصحة اسمه بالحبشة « قباكرستوس » .
(٢) ل : الينا .
(٣) ل : كتب لها ثم شطبها وكتب له .
(٤) ل : ينبسط .
(٥) وهم الفلاشة يهود الحبشة .
(٦) واسمه بالحبشية «جونا اوجيرا» .
(٧) وهو جبل سمين .
(٨) ل : اعرف .

الحبشة ، وهم على دين اليهودية ، وشريعة التوراة ، وكانوا من قبل خارجين عن طاعة الملك لاختلاف الدين ، وهم أهل نجدة ، وشوكة عظيمة ، وبسالة ، فما زال الملك يغزوهم ، ويحاربهم ، ويضايقهم من جميع أطراف بلادهم ، لإحاطة بلاد النصارى بهم ، حتى غلبهم واستنزلهم من حصونهم ، ودخلوا فى طاعته ، ودانوا له بمقالته ، وجعل بلادهم إلى ولاية هذا الوزير ، ودخل أكثرهم فى النصرانية ، ولم يبق إلا اليسير ، غير أن الملك لا يعترضهم فى أمر الدين ، وإنما يطلب منهم الطاعة له ، واستمر سيرنا فى هذه البلاد حتى اتصلنا ببلاد « الامحرة » الذين هم عشيرة الملك ، وكرسى مملكته ، وأهل نصرته ، وكان سيرنا فى بلاد « الامحرة » قدر اثنتى عشرة مرحلة ، وبعد (١) اثنتى عشرة وصلنا قرية قريبة من مدينة الملك ، أهلها كلهم مسلمون ، وفيها مسجد ، ومكتب لتعليم صبيانهم القرآن ، فاستأنسنا بذلك غاية الأنس ، وسررنا به أكمل المسرة ، بحيث أنه سرى (٢) عنا ما ثقل على قلوبنا مما قد قاسينا من سوء مخالطة الكفار والنظر اليهم ، وإلى منكراتهم ، إلا أن الله سبحانه وتعالى يسر لى خاصة تجنب طعاماتهم المصنوعة ، لما كنت أعديت (٣) من الدقيق الذى يطحنه المسلمون ، وأما بقية المصاحبين فإنهم اضطروا إلى أكل طعامهم المصنوع ، وللضرورة أحكام ، ولما وصلنا هذه القرية المختصة بالمسلمين جاء رجل (٤) إلى الحاج سالم بن عبد الرحيم ، رسول الملك الذى نحن فى صحبته ، يخبره أن رجلين من أصحابه قد اتصلا بوزراء الملك ، وألقيا كلاماً إليهم ، معناه أن الحاج سالم قد جاء فى صحبته بهذا الرجل العرقى وهو من أهل شريعة دين الاسلام ، ويريد أن يدخل الملك فى دينهم ، ويغير دينكم ويمحق شريعتكم ، وأمرنا هذا الرجل النذير بافتقاد ما معنا ، من كتب الامام عليه السلام ؛ لئلا يكون فيها شىء مما يصدق ذلك الحديث ، فجاء الحاج سالم إلى مبهوتاً من ذلك خائفاً مرعوباً ، وقال لى انظر فى كتاب الامام عليه السلام ، وتحقق ألفاظه ، فإن وجدت فيه ما تخشى عاقبته أصلحته ، وحولت عبارته ، وقلت فيه ما شئت فإنهم قوم لا يفقهون ، فأعدت نظراً فى الكتاب وهو غير مختوم ، فإذا

(١) ل : وبعد تمام .
(٢) ل : تسرى .
(٣) ل : أعده .
(٤) ل : هامش أضاف «جاء رجل»

فيه من الكلام ما يجد[١] له عذراً وإن كان فيه نحو قوله تعالى ، يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، . إلى آخر الآية[٢] ، فكنا هيئنا لمثل ذلك عذراً أن جرى فيها المناقشة ، على أن قلوبنا مع ذلك ساكنة شديدة ، لم نجد فيها قلقاً ولا اضطراباً ، فكتمنا ذلك فى نفوسنا ، وأسررناه فى ضمائرنا ، ثم تقدمنا ذلك اليوم إلى محل يتصل بمدينة الملك ويعد من جوانبها ، ووقفنا هنالك ، وهؤلاء النصارى على عموم ليس فيهم شىء من المروءة[٣] ومكارم الأخلاق ، التى لا يمنعها شؤم الكفر ، ولا تخلو ملة من الملل ، من الاتفاق على أنها من صفات المحامد ، وخصال الأماجد ، أما هؤلاء القوم ، فرأيناهم فى اللؤم وشدة البخل كأنهم جميعاً أخلاق رجل واحد ، إلا أن تكون عليهم يد غالبة . وسلطان قاهر ، فمن جملة لؤمهم أنا بتنا فى هذه القرية طاوين عن الطعام ، ولم ندخل أماكنهم إلا بالقهر لهم ، والغلبة عليهم ، ثم إنا بعثنا إلى الملك رسولا يخبره بوصولنا إلى ذلك المحل ، ويستأذنه بقدومنا عليه ، فأبطأ الرسول ، ولم يرجع إلينا الجواب إلا فى آخر اليوم الثانى ؛ لبعد منال الملك ، وصعوبة الاتصال به ، وسوء معاملة وزرائه ، وأعوانه ، ولما رجع إلينا الجواب من الملك[٤] يأمرنا بالدخول إلى المدينة[٥] والمبيت فى بعض بيوت الوزراء رجل اسمه « حواريا » . فدخلنا[٦] بقية ذلك اليوم ، وهو يوم الجمعة المباركة ، سلخ شهر صفر المظفر عام ثمان وخمسين وألف سنة ، فررنا فى أزقة المدينة ، وقد اجتمع فيها من جموع النصارى الذكور والإناث ، على قواعدهم فى عدم حجاب النساء ما لا يعلم قدره إلا الله ، ولا يحصى عددهم سواه ، وذلك لما توفرت دواعيهم ، واشتدت رغبتهم إلى نظر هؤلاء العرب الوافدين ، وكونهم شكلا غريباً ، وأمراً عندهم عجيباً ، فانتهينا إلى بيت ذلك الوزير الذى أمر الملك بالنزول تلك الليلة فيه ، ووصلت إلينا الضيافات من بيت الملك ثم من وزرائه[٧] طعاماً مصنوعاً ، وعسلا كثيراً ، وغنما ، كل رجل بما تسنى لديه ، وبحسب حاله ، وخلطوا فى هذه

---

(١) ل : نجد .
(٢) الآية من سورة آل عمران .
(٣) ل : أمر المروءة .
(٤) ل : جواب الملك .
(٥) لم يذكر الحيمى اسم مدينة الملك فى رسالته هذه وهى على أغلب الظن مدينة جوندار عاصمة الحبشة فى ذلك الوقت .
(٦) ل : دخلنا فى .
(٧) ل : سائر وزرائه .

الضيافة من دنان الخمر العظيمة ، يحسبونه من كمال الضيافة ، وما يتحفون به الأضياف أشرف التحافة ، فأشار إليهم الحاج سالم بن عبد الرحيم رسول الملك أن يرفعوا ذلك وبين لهم حكمه فى دين الإسلام ، الذى شرفنا الله به وأيدنا بعزه ، فسارعوا برفعه فوراً ، ثم لما كان صبح تلك الليلة المسفر عنها أمر إلينا الملك يستدعى وصولنا إليه ، فتقدمنا إلى قلعة الملك ، وأشرفنا على دار عالية ، وبنية سامية ، من أعجب المبانى الباهرة ، وأحسن العجائب الفاخرة ، مبنية بالحجارة والنورة ، وليس فى تلك المدينة ؛ بل ولا فى أرض الحبشة غيرها ، فهى من أكمل منظر وأجمل صورة ، وسائر[١] البيوت فى تلك الديار جميعها إنما هى عشاش من نبات الأرض ، والبانى لهذه الدار رجل من أهل الهند ، فجعل[٢] تفصيلها على أساليب أرضه ، وهذه القلعة التى تختص ببيوت الملك فى جانب المدينة وأعلى محل فيها وهى تشتمل على دور عديدة ، وساحات مديدة ، وحول هذه الدار مبان أخر أرضية ، متسعة الأطراف فى الطول والعرض والسمو ، سعة ما رأته العين فى شىء من المبانى ، وهذه الأماكن معدة لقعود[٣] الملك فيها ، وفى كل مكان منها ما ينبغى أن يهيأ به من الفرش الرومية المنوعة ومطارح الهند التى هى بالذهب ملمعة ، والأسرة الفاخرة ، التى هى بالحلية والجواهر مرصعة ، فناهيك بتلك المقاعد زينة للناظر ، واستدراجا لذلك الملك الكافر . ولما وصلنا إلى الملك وقد انتظم مجلسه فى تلك الدار ، وتهيأ أهل الحضرة من الوزراء وغيرهم بأفخر هيئة وأعظم أبهة حيث لبسوا مطارح[٤] الديباج المطرزة بالذهب ومطارف الحرير التى يقضى منها الناظر إليها بغريب الصنعة ونهاية العجب . وجعلوا فى أوساطهم مناطق الذهب المحلاة بالفصوص الفاخرة ، ونفيس الجواهر التى هى لهم فى الدنيا ولنا[٥] فى الآخرة ثم أخذوا فى أيديهم السيوف السنارية المحلاة كذلك بعين الذهب الخالص ، وتعجلوا[٦] هذه النعمة التى هى إلى الزوال أسرع من الظل القالص ثم انتظموا بذلك المجلس قياماً أحسن نظام مع تمام صورهم ، لما خلقهم الله عز وجل[٧] من بسطة الأجسام ، وألوانهم مع ذلك غير

---

(١) ل : الآن سائر .
(٢) ل : فصفة .
(٣) ل : لتعود .
(٤) ل : مطارف .
(٥) ل : ولنا ان شاء الله .
(٦) ل : ويعجلوا .
(٧) ل : نضيف « عليه » :

مشوهة بالسواد الفاحم، ورؤوسهم مكشوفة عن[١] الشعر الجعيد الناعم ، وفى أيديهم أساورة الذهب وفى آذانهم الأقراط المتلألئة كاشتعال اللهب . وعلى الجملة فما رأيت من صفات الملك غير هذه الأمور المنعوتة ، وما سوى ذلك من الكمال فعراه مبتوكة مبتوتة ، فلما رأينا تلك الهيئة وذلك الانتظام ، وقد كان فى النفس شىء من ذلك الكلام ، الذى قدمنا ذكره ، لخطر بالبال أن هؤلاء الوزراء يريدون بهذا الاجتماع ، معرفة حقيقة ما نقل إليهم ، وقد يمكن أنهم يريدون الاطلاع على كتاب الإمام ، عليه السلام ، الذى فى صحبتنا لأن هؤلاء الوزراء لهم اليد القوية على الملك والتصرف النافذ على كل حال ، ولما نظرنا إلى الملك وجدناه ، وقد نزل عن سريره ، وقعد على الأرض إكراماً لنا ، وإعظاماً لإمامنا ، وقاعدته التى يعرف عليها أنه لا ينزل عن سريره لوفود وافد ، إلا أن يكون فى أعلى مراتب الفخامة ، ومستحقاً أنفر أنواع الكرامة ، ثم إن كل وافد لا يقعد بين يديه إلا بإذنه ، ولا يأذن إلا لمن كانت منزلته كذلك ، فلما استقر بنا المجلس ، أقبل[٢] الملك ، وقد أعد ترجماناً شريفاً يقول إنه من آل الحسين بن على رضوان الله عليهما ، من أرض بخارى ، وهو ملازم حضرة الملك ، قد سلب الإيمان ، واستحوذ عليه الشيطان ، وسلك فى مساخط الرحمن، فهو شيطانهم المريد « إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد »[٣] وهذا الشريف يعرف لسان العرب أحسن المعرفة ، ويعبر عنه أوفى العبارة ، فاستقام بين يدى الملك يعبر عنا وعنه ، وسألنا عن الأحوال ، فأحفى السؤال ، وبالغ فى التحقيق[٤] عن الإمام عليه السلام . وأولاد اخوانه بأبلغ الاستفصال . ثم إنه بدأنا بالسؤال عن كتاب الإمام الذى فى أيدينا ، واستدعاه منا بمسمع من أهل حضرته ، فتأكد ذلك الظن حيث ابتدأنا بذلك ، فأجبنا عليه أن معنا كتاباً ، وصحبته هدية من الإمام عليه السلام ، إلى الملك ، ولإيصاله وإيصال الهدية مجلس آخر غير هذا ، كما هى القاعدة المعروفة، فأجاب علينا الشريف الترجمان قبل أن يبلغ الملك أن قواعد هؤلاء القوم غير ما عرفتموه، وهى أن الوافد مثل وفودكم هذا يقدم هديته بين يديه حال قدومه . فقلنا له بلغ الملك ماقلناه ، واعتذر لنا فيما جهلناه ، فبلغ الشريف ما عرفناه

(١) ل : من .
(٢) ل : أقبل علينا .
(٣) الآية من سورة هود .
(٤) ل : طلب التحقيق .

به وقبل عذرنا ، ثم قال لنا بعد ذلك فى أى محل تريدون النزول فى منازل النصارى أم فى منازل المسلمين ، وهناك حافة للمسلمين مخصوصة ، محصورة ، فى جانب من المدينة ، فقلنا له : منازل المسلمين أولى بنا ، والكل فى جواركم وحماكم ، فأمر معنا ذلك الشريف ينزلنا فى بيوت تصلح لنا ، ففعل الشريف ذلك ، وبقينا تلك الليلة ، وافتقدنا كتاب الملك ، وأسماء الهدية فيه ، وأعيانها ، ثم استأذنا على الملك فى اليوم الثانى للوصول إليه بالهدية ، فأذن وتوجهنا[١] ووجدنا حضرته كما كانت بالأمس ، فدفعنا إليه الكتاب ، فقرأه الشريف الترجمان جهراً ، يسمعه أهل الحضرة ، وعبر عنه بلسانهم الذى يعرفونه ، ثم سلمنا تلك الهدية بأعيانها ، شيئاً فشيئاً ، حتى أتينا على آخرها ، ولما فرغنا من تسليمها ، سألنا الملك أن يجعل لنا من أصحابه وأعوانه ، من يتولى رفع حوائجنا إليه مما يعرض لنا فاستحسن ذلك ، وعينه على الوزير المقدم ذكره المسمى « حواريا » ، ثم انصرفنا من حضرة الملك ، وقد أمر ذلك الوزير أن يجرى علينا من النفقة ، وتوابعها ما يقوم بكفايتنا ، وألزمه أن يحسن التعاهد لنا ولأموالنا[٢] ، فأجرى علينا من القوت[٣] فى كل شهر ثلاثين حملا من الحنطة ، وأربعين رأساً من الغنم ، وأربع رؤوس من البقر ، وعشرين جرة من العسل ، وست جرار من السمن ، واستمر ذلك[٤] فى كل شهر ، ولما كان بعد مضى ستة أيام من حين وصولنا ، طلب الملك وصولنا إليه ، وأمرنا أن نقلل من[٥] الجماعة المصاحبين، ففهمنا أنه يريد ذلك الموقف الذى يكون فيه كشف السر الذى إليه يساق الحديث ، فتوجهنا إليه وصحبنا من جماعتنا ، غير أنهم بعد وصولهم حضرة الملك خرجوا من عندنا ، ووقفوا فى حجرة الدار ، ولم يبق فى حضرة الملك من وزرائه غير ثلاثة منهم من كبارهم ، لم يخرجوا من حضرته ، وبقية الوزراء والأعيان متوارون عنا يسيراً ، وهم يتطلعون إلى سماع ما يقال من الحديث ، وليس هنالك احتراص[٦] على حفظ الأسرار ، وصيانتها عن الإعلان والإظهار ، وأمر الملك الحاج سالماً رسوله المقدم ذكره أن يترجم عنه وعنا ، فى ذلك الموقف، وأفاض إلينا من مكنون سره ، وأعلن بما كان أضمره فى صدره ، حتى أتى على آخره ، والمراد منا

(١) ل : وتوجهنا اليه بها .
(٢) ل : الأحوالنا .
(٣) ل : الملك .
(٤) ل : ذلك مرتبا .
(٥) ل : يحذفها .
(٦) ل : احتراس .

هو استيداع ذلك الحديث وحفظه عن الإذاعة ، والحرص عليه من الإضاعة ، حتى نبلغه عن صفته إلى مولانا أمير المؤمنين ، أطال الله له الأيام والسنين ، وجوابه ليس مطلوباً منا كما ذلك معروف من سياق مبادىء(١) الاخبار ، غير أنا جاريناه فى ذلك المقام بما يليق بالحال ، من ترويج الكلام ، وتلقى ذلك الحديث بالإكرام(٢) التام ، وختمنا ذلك المجلس بأخذ الحقيقة من الملك لما سألناه عن ذلك الحديث ، أهو الذى استدعى وصولنا إليه من أجله ، فقال نعم ، هو هذا بعينه ، وهو أمر عظيم لا يصونه إلا مثلكم ، فقلنا هل بقى فى نفوسكم شيء ؟ فهذا الموقف أحسن ما تستقصى فيه الأخبار وتباح فيه مستودعات الأسرار ، فقال هو هذا ، ولم يبق غيره مما نريد نحن وصولكم إلينا من أجله ، فانصرفنا من مجلسه ذلك وأخذنا نتصفح أحواله ، وهل نجد سبيلا إلى الخوض معه فى ذلك الأمر الذى هو غاية الأمل ، وقصارى الأرب ، فلم نجد فى تلك الدار لذلك النداء عريباً ، ولا من يكون إليه مجيباً ، فكنا نحن وإياه كما قيل :
انك فى واد وأنا فى واد ، ولكم بين مريد ومراد . فأعرضنا عنه صفحاً وسدلنا دونه ثوباً ، وطوينا عنه كشحاً ، ثم أنه وصل الينا عقيب وصولنا حضرة الملك ، رسول من بعض تجار اليمن بجهة مسوع ، يرفع ما نريده من أخبار اليمن ، وأحوال إمامنا ، وانتظام أمور ساداتنا ، أيدهم الله بعزيز نصره ، فسرنا ذلك غاية المسرة ، وحمدنا الله عز وجل على تلك الأخبار الصالحة التى هى للعين قرة ، ثم أنا سارعنا بتحقيق الأخبار ، الى مولانا أمير المؤمنين ، أطال الله له الأيام والسنين ، ورأينا من أهم الأمور ، وأولى ما يزحزح به حرج الصدور ، تعريف مولانا أمير المؤمنين أيده الله تعالى بأنا نريد الخروج من(٣) مسوع وأنه حفظه الله تعالى يكتب الى باشه الأتراك هنالك من يستأمن لنا منه ، وأن العود من هذه الطريق التى دخلنا منها غير ممكن ولا سبيل اليه ، ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، ففصلنا الى مولانا أيده الله تعالى كتاباً جازماً بذلك .

ثم ما(٤) كان من ألطاف الله الخفية ، وعنايته التى طالما ما أدركنا بها ولله الحمد

---

(١) ل : مبادىء هذه .
(٢) ل : بالاقبال .
(٣) ل : من جهة .
(٤) ل : يحذفها .

كل بغية وأمنية ، أنه وصل رسول من قبل باشه الأتراك إلى حضرة الملك من جهة سواكن ، موجهاً صحبته بهدية ، وهذا الرسول رجل عربى اللسان ، من أهل سواكن ، اسمه الأمير عبد الوهاب ، حسن الأخلاق ، كامل الصفات ، جميل المعاشرة ، سنى المحاضرة ، كريم الطباع ، له نسك أهل الصلاح ، يحفظ القرآن غيباً ، حفظاً جيداً ، وعناية تامة ، وله مع هذا مشاركة فى كتب السير ، والآداب ، وعلى الجملة فإنه من نعم الله تعالى علينا حيث روّح عنا بأدبه وانكشفت عنا غيابات الكروب بسببه ، وأجرى الله لنا على يديه منافع كثيرة ، ونعماً جليلة ، ولما رأينا حسن عشرته ، وخلوص مودته ، وظهور صدقه وأمانته ، أسررنا إليه ما نريده من الخروج من جهة مسوع ، وإنا قد رفعنا ذلك إلى مولانا(١) أيده الله تعالى ، وما ندرى ما يستحسن من ذلك ونحن نخشى أن يخطر بباله أيده الله تعالى ، أن العود فى هذه الطريق التى دخلنا منها متيسر ، أو مع(٢) بعض مشقة لا تخلو عنها حال المسافر فى الغالب ، وإلا فالمعلوم بالضرورة أنه لو يرى ما قد رأيناه وشاهد(٣) منها ما شاهدناه ، لم يرضها لنا على كل حال ، ونحن نريد تمام هذا الرأى على يديك ، وتفويض الأمر فيه إليك ، فابذل فيه العناية ، وأحسن فى تدبيره السعاية .

إذا(٤) أراد الصديق نفع صديق   فهو أدرى فى نفسه كيف يسعى

فأحسن فى الجواب وكشف برايق(٥) عبارته عن وجه الصواب ، وقال بعد أن سمعت منك(٦) هـذا الحديث ، فقد عزمت أن أعطيك مجرى ومجرى . اعلم أنى ما دخلت بهذه الهدية إلى هذا الملك إلا متوصداً(٧) بها إلى الإحاطة بأخباركم فإن محمد باشه صاحب سواكن ، لما بلغه دخولكم من جهة بيلول ، أقعده ذلك وأقامه ، وأقلقه وطرد منامه ، فتوصل الى إدراك حقيقة هذه الأخبار بما تراه من وصولنا بهذه الهدية المضمر فى طيها استكشاف هذه الخبية ، وهذا الأمر الذى استدعيتموه ممكن(٨)

---

(١) ل : مولانا أمير المؤمنين .
(٢) ل : مع احتمال .
(٣) ل : ويشاهد .
(٤) ل : ان .
(٥) ل : تحذفها .
(٦) ل : الهامش « منكم » .
(٧) ل : متوصلا .
(٨) ل : يمكن .

حصوله ، على أحسن الوجوه بفضل الله وإحسانه ، ومنه وإمكانه ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، والخيرة لله العزيز الحكيم .

واتفق الرأى بيننا وبينه على أخذ رأى الملك فى ذلك ، وقد عرفنا من مراده أنه لا يحب المرور من جانب الأتراك ، لما يلقاه [١] أهل الحبشة من جورهم وتحكمهم فى أموالهم ، وسوء معاملتهم ، فلذلك أن الملك يحب فتح هذه الطريق من جانب بيلول ، وربما كان هذا هو ضميره المستكن من هذه المواصلة بينه وبين إمامنا صلوات الله عليه وسلامه ، فإنه يعلم أن [٢] لا يتم له فتح هذه الطريق إلا بقوة وعناية ، من وجوه عدة ، من جملتها معاودة [٣] الرسل من قبل الإمام عليه السلام فى هذه الطريق ؛ فإنهم مع قوتهم بمعونة الله تعالى ، واستصحابهم البنادق ، يسير معهم كثير من أهل التجارة ، دخولا ، وخروجاً ، فتسهل [٤] أوعارها ، ويتيسر حزانها [٥] وتتقلل أخطارها . وكان رسولنا الى الملك لاستئذانه فى ذلك ، الشريف محمد بن موسى البخارى ، المقدم ذكره . ولما عرفه بذلك أجاب الملك فى ذلك المقام بالإسعاد ، الى ذلك المراد ، وكان جوابه هذا صادراً على [٦] بديهة الرأى ولم يبعد أن يكون فى تلك الحال متغيراً بسكره ، وعلى غير ثبات من أمره ، ولما [٧] ظهر لنا منه بعد ذلك من الندم الشديد على رضاه ، والأسف على ذلك الرأى الذى أنفذه وأمضاه ، ولما رجع إلينا جوابه بالمطابقة والموافقة ، سارع الأمير عبد الوهاب إلى محمد باشه بكتاب يذكر فيه ، مثل ما عرفناه به وأرسل [٨] رسولا من فوره ، ثم أنه تجدد بعد ذلك اختلاف رأى الملك علينا وقال مروركم من جانب الأتراك لا سبيل إليه ، ولا يمكن أن يكون ذلك ، فإنهم أعداؤنا وأعداؤكم ولا أمانة لهم ، فقلنا له أما عداوتهم فلا تنكرها ، وأما الغدر منهم فلا نظن ذلك فيهم ، فإن الغدر مذموم فى كل ملة وفى

---

(١) ل : تلقاه .
(٢) ل : أنه .
(٣) ل : يعاوده .
(٤) ل : فتتيسر .
(٥) ل : يحذف ويتيسر حزانها .
(٦) ل : عن .
(٧) ل : لما .
(٨) ل : وأرسل به .

حكم كل شريعة ، ألا ترانا [١] دخلنا بلادكم ، ووصلنا إليكم بمجرد كتاب منكم ، وأنتم مخالفون لنا فى الدين والملة ، فأنتم على دين النصرانية ، ونحن على دين الإسلام ، فلو إنا ما وثقنا بقولكم ، ما وصلنا إليكم ، وما رأينا عاقبة ذلك إلا وفاء وكرامة ، وعافية وسلامة ، وأما الأتراك فهم [٢] على ديننا وملتنا وكتابهم كتابنا ، ونبيهم نبينا ، فكيف أنا لا نقبل منهم الأمان ، ونجعله أعظم حجة بيننا وبينهم . وليس المراد للملك إلا الرجوع فى طريق بيلول ، لتلك الأغراض التى يريدها فقط ، فما برحت المراجعة بيننا وبينه دائرة ، والأقوال مختلفة ، وهو يتوسل علينا بكثير من الناس ، ويلقى إلى أصحابنا شيئاً من ذلك الحديث سراً وجهراً ، ويخوفهم من السلوك فى جانب الأتراك بكل مخافة ، والملك فيما أعتقد غير محيط علمه بهذه [٣] الطريق ، التى يحاولها من جانب بيلول ، وإلا فلو يعرفها حق المعرفة لما [٤] أظنه يستحسنها مع وجود غيرها ، فلما أطال [٥] الحديث بيننا وبينه فى ذلك ، وعرف أنا باقون على تلك النية غير منقلبين عنها ، لم يجد بداً من إسعافنا إليها ، غير أنه طلب منا شاهداً نكتبه يكون فى [٦] يده يقضى ببراءته من هذا الرأى ، وأن عاقبته من سلامة ، أو ندامة ، لنا وعلينا ، فوضعنا له شاهداً ، وقبضه منا ، وقد أشهدنا فيه على أنفسنا ، وأعطاه ذلك الرسول الذى وصل إلى الإمام ، ودخلنا فى صحبته لأن الملك عازم على عوده إلى حضرة الإمام عليه السلام ، ثم بعد ذلك خلى سبيلنا فى سلوك هذه الطريق ، التى كانت عاقبتها ولله الحمد أحمد ، والرأى فى سلوكها هو الرأى الأسد ، وقد أطردنا الحديث على هذا النسق ، وبقى لنا أشياء لا غناء عن ذكرها ، مما يتعلق بأيام إقامتنا [٧] المرتبة ، فى كل شهر ، على نظر ذلك الوزير المسمى « حواريا » مع مشاركة سائر الوزراء فى تلك الأعمال ، ومشارفتهم عليها كما هى قواعدهم المعروفة فى جميع الأحوال ، فإن التصرف والتدبير الذى هو فى الحقيقة من التدمير إنما هو بأيديهم ، وجار على مرادهم وآرائهم ، متطابقة فى الاستواء ، متوافقة على اتباع الأهواء ؛ لا تظهر فيهم المنازعة ، ولا يقع

---

(١) ل : ترى أنا .
(٢) ل : والأتراك هم .
(٣) ل : بصفات هذه .
(٤) ل : ما .
(٥) ل : طال .
(٦) عبارة « يكون فى » مكتوبة فوق السطر بخط المحقق .
(٧) ل : اقامتنا فى حضرة الملك . وقد قدمنا ذكر ما أمر به من أمور النفقة .

بينهم المدافعة ، أعمالهم مبنية على الجور ، والسكل[١] يتعاملون بذلك ظاهراً ، ويشرطونها على أهل الحاجات شاهراً ، لا يستترون بها ؛ ولا يستحيون منها ، وكانوا لهذه الصفات الدنية فهم يريدون التبطى بقضاء أغراضنا وإبلاغ حوائجنا ؛ ليضطرونا إلى الولوج فى هذه المخازى ، والدخول فى هذه النقائض ، فتقاصرت عنا آمالهم ؛ لما رأوا[٢] من علو منزلتنا عند الملك ؛ والاتصال به فى أى وقت نريد ذلك منه ، فنافسونا على ذلك ، وأدركنا منهم العـــداوة والبغضاء ، والمكايدة والمعاندة ، ومما اتهمناهم به أمر الحريق الذى وقع معنا هنالك ؛ فإن فاعله إنما أراد هلاكنا بالنار غير أن الله سبحانه وتعالى أبقى علينا ستره ، وأبطل على الساعى بذلك كيده ومكره. وكيفية الحال فى هذا الحريق ، أنا لم نشعر فى بعض الليالى وقد هدأت العيون بمراقدها وأخذت الجنوب مضاجعها ، إلا وقد اشتعلت النار فى جانب العشة التى أنا فيه مع شدة رياح عاصفة ، وزعازع منها قاصفة ، فأسرعت فى الاشتعال ، وأتلفت جميع مالدينا من الآلات ، وساير الأثقال ؛ ولم نتمكن بعد ظهور النار إلا من النجاة بالنفوس ، فالحمد لله الذى نجانا من ذلك البؤس ، وكان من أهم ما أهمنا من ذلك حريق الكتب التى كنا استصحبناها ، فإنه ذهب منها شىء بالكلية ، وبعضها بقى منه بقية ، وبعضها وقع فيه شين وتناقص عن حالته السليمة السوية إلا نفس المصحفين الذين كانا فى تلك العشة ، فإنا وجدناهما سليمين لم يصبهما شىء أصلا ، وإنما وقع فى أحدهما شين يسير ، فى جلده فقط ، وذلك من فضل الله ، وكرامة كتاب الله ، ووقع معنا من هذا الحريق روعة عظيمة ، وفزع كبير رأينا سلامتنا منه ولله الحمد نعمة عظمى ، ومنة طلع نجمها فى فلك السعادة الأسمى .

اذا سلمت رؤوس الرجال من الردى   فما المال الا مثـــل قص الأظافر

اللهم أنا نعوذ بعظيم عفوك ، ونلوذ بخفى لطفك ، من عذابك الذى لا يدفعه إلا رضاك ، ونار عقابك التى أعددتها لمن خالفك وعصاك ، فإنه لا طاقة لنا على عذابك ولا حول ولا قوة إلا بك ، ولما بلغت هذه القصة إلى الملك أقامه ذلك وأقعـــده وأبرق بسببها على الناس وأرعد ، حتى أن الوزراء مازالوا يخففونها عليه ، ويهونونها

---

(١) ل : واكل الرشاء .
(٢) ل : راوه .

لديه فغفل عن شأنها ، وأعرض عن الاحتفال بأمرها ، وأما نحن فلم نعبأ برفع مثل ذلك إلى الملك وقلنا له حين سألنا عنها[١] ما فى[٢] هذا بأس ، ولم نظهر له التوجع من أحد من الناس ، وإنما استعنا على ذلك بالله عز وجل ، وبحسن الصبر ، وأعمال الحذر ، ومصاحبة الحزم ، وإحسان النظر ، واشتغلنا بمعالجة الملك فى حصول الإذن منه لنا فى العود إلى ديارنا ، والإقبال على أعمال سفرنا ، فما برح يطاولنا فى الوعود ، ويروح فى المماطلة ويعود . حتى مضت علينا تسعة شهور كاملة ، إلا أنه عرض من الأعدار للملك فى تحييرنا ، دخول أيام الخريف ، وما يعتاد فيها من توالى الأمطار واتصال ذلك فى جميع ساعات الليل والنهار ، فيستمر مطبقاً أربعة أشهر لا ينقشع سحابه ولا ينقطع فى تلك الأشهر على[٣] تلك الديار ودقه وانصبابه ، حتى أنهم ليعدون كثيراً من ذخائر النفقات ، وما يتبعها من القوانين المصروفات ، قدر كفاية أيام الإطباق لما يحصل من احتباس الناس ، وانقطاع الأسواق ، ولقد رأينا تلك الديار مع هذه الأمطار يظهر للعيون بأعجب مايراه الرائون من حسن خضرتها ، وكمال نضارتها ، سهلها وجبلها ، وجميع أرجائها وجوانبها ، وتزهر مع ذلك بأنواع الزهور البرية ، بلون الخضرة الزبرجدية والحمرة الوردية ، والصفرة العسجدية ، وقد يأخذون من هذه الزهور المذكورة ويتخذون[٤] منها صبغاً عجيباً يحبسونه بشىء من الممسكات ثم يصبغون به فى الثياب ، وفى شىء من البسط يشبه البسط الرومية ، فيكون صبغاً رائقاً ، ولوناً مناسباً لائقاً ، ومع اتصال تلك الأمطار ، وتواليها على عموم تلك الأقطار لا يتيسر[٥] مواد الأسفار ، ولا يأمن الناس من الوقوع فى الأخطار ، فأقمنا تلك الأيام كالقبض على جمر الغضا ، والصبر على سفع اللظى .

رضيت قسراً وعلى القسر رضى   من كان ذا سخط على صرف القضى

ومن عجائب ما يذكر ، أنه قد يتفق فى هذه أيام الخريف فى تلك الديار نزول نار من السماء ، يرونها كالدخان العظيم المجتمع فى جو السماء تركمه الرياح[٤] بعضه على

---

(١) ل : عبارة « حين سالنا عنها » كتبها المحقق فوق السطر .
(٢) ل : ليس .
(٣) ل : عن .
(٤) ل : ينجرون .
(٥) ل : لا تيسر
(٦) ل : يركمه الريح .

بعض ، ثم ينزل مجتمعاً . وهم يرونه بأعينهم حتى يقع على الارض ، فإن أصاب بيوتاً أحرقها ، وإن وقع على نفوس أهلكها ، وهذا لم نشاهده عياناً ، وإنما رواه لنا بعض جماعتنا المصاحبين كان متروحاً فى البادية ، فوقع ذلك فى تلك المحلة التى كان فيها ، ولما روى لنا ذلك سألنا عنه كثيراً من أهل تلك الديار، فأخبرونا أن ذلك شىء معروف، وأمر مكشوف[1] ، فسبحان الملك القدير ، المخوف بآياته ، المظهر لعباده ما أراهم من دلائل نقماته وسطواته ، « إن فى ذلك لعبرة لأولى الابصار »[2] . ولما انقضت أيام الخريف ، رجعنا إلى مذاكرة الملك ، ومطالبته فى شأن السفر والحث له على الوفاء الذى هو أطيب ماتضمنته السير ، وأفضل ماذكر فى طى الذكر ، فرجع إلى تلك المماطلات الكذبية ، والمواعيد العرقوبية ، وغالب أحوالهم أنهم يعدون الكذب شعاراً ودثاراً ، ويتعاملون به ولا يرونه عاراً وبواراً ، ونحن فى خلال هذه الإقامة ، نطلب من نجتمع به من أهل شريعتهم وقراء كتابهم ، فلم نجد أحداً ممن يعرف بذلك ، إلا من كان منهم تسمى[3] باسم الرهبانية والاغلب عليهم عدم الاطلاع على أحكام شريعتهم ، وإنما طريقتهم الزهادة والعبادة والميل إلى الخلوة ، واجتناب الأنكحة ، فأما هؤلاء فكثير جاءنا منهم ، وكنا نخوض معهم فى أشياء من علوم الشريعة ، فلم نجد عندهم ما يعرف به كونهم من أهل علمهم ، فإن محاورة العلم لاتخفى ، وقد كان بلغ إلينا خبر رجل عظيم من عظماء القسيسين وأحبارهم الذين يأخذون عنهم أحكام الدين . ولكنه وقع فى قضية اقتضت حبسه بيد الملك ، والاخذ عليه بالتضييق الشديد فى جزيرة من جزائر النيل[4] ، وها نحن نذكر مابلغ إلينا من أمره ، وهو أن هذا القسيس المذكور رجل من القبط من أهل مصر . والقاعدة التى جرت عليها سنتهم أنه لايقعد فى هذا المقعد إلا رجل من القبط بأمر البترك صاحب بيت المقدس ، يوليه ذلك ، ويبعث به إلى أرض الحبشة ، مضت على ذلك سنن الماضين ، واحتذاه من خلفهم من الآخرين . ولسان هؤلاء القبط لسان مصر عربى ، ويخرج من مصر وكتاب الإنجيل معـــه مكتوب بالعربى ، وجميع ما يستصحبه من كتب شريعتهم وأحكام دينهم كذلك مكتوب[5] بالعربى أيضاً، ومن

---

(١) ل : ظاهر مكشوف .
(٢) الآية من آل عمران .
(٣) ل : يتسمى .
(٤) ل : بحر النيل .
(٥) ل : مكتوبة .

تصدر[1] لهذا الشأن يسمونه بلغة الحبشة الابون[2] ، كما يقال بلغة[3] العرب القاضى ، وحين يستقر فى هذه المرتبة ، يشارك الملك بنصف مايجبى إليه من ولايته من قليل وكثير[4] . وكان هذا الابون ممن طالت مدته فى هذه الوظيفة نحو اثنتى عشرة سنة ، وعظم ملكه وتكبر فى نفسه ، ومالت إليه الاكابر ، واعتمدت عليه الرعية والعساكر واغتار منه الملك ، وصار يطلب إعمال الحيل على هذا الابون ، والاخذ عليه ، والإنتقام منه ، وكان من الأسباب المهيئة لذلك أنه بطش برجل من المسلمين كان من أهل بطانته ، والاختصاص بخواص خدمته ، فانتهبه وهتك ستره ، ومع ذلك فانه ، أعنى هذا المسلم[5] ، من أهل الهمة والأنفة ، فما برح يتطلع إلى الاتصال بالملك ، لينم إليه بأمور يستنكرونها على الابون ، ويعلم أنهم يؤاخذونه عليها ، والملك يطلب مثل ذلك ، واتصل هذا المسلم بالملك ، وباح إليه بجميع ما عنده ، وما أطلع عليه من أمره ، وكشف له ما كان مستودعاً عنده من سره ، فاستثبت منه الملك فيما نقل، ثم طلب[6] الوزراء الاول فالاول ، يطلعهم على ذلك ويخبرهم أن هذا[7] صار يخبط بهم فى مهاوى المهالك ، وللرهبان كبير يعتزون[8] إليه يسمونه الاجيق[9] فأحضروه فى ذلك المجلس ، وشاوروه فى الرأى ، فأجمع رأى الجميع أنهم يصيحون فى المدينة ، أنه من علم بفاحشة على الابون تخالف دينهم وصل إلى الملك فى يوم معلوم ، فلما سمع الناس ذلك النداء استعد للإجابة إلى الملك خلق كثير من الرجال والنساء ، وحضروا[10] مجلس الملك فى ذلك اليوم المعلوم ، والميقات المحتوم[11] ، وزمته ألسن الحاضرين بما علموا من معاصيه ، واطلعوا عليه من مخازيه ، حتى لقد شهد عليه بعض نساء الملك بما تشاركوا فيه من الفجور ، واتفقوا عليه من الفواحش المخزية فى يوم النشور . وهم يرقمون شهادة من حضر ذلك الجمع ، ويسندون شهادتهم إلى ما أدركته حاسة البصر والسمع ، وكاتب هذه المخزيات الشريف محمد بن موسى المقدم ذكره بالقلم العربى ، لأنهم يريدون رفع ذلك إلى البترك صاحب بيت المقدس وقلمهم

---

(١) ل : بصدر .
(٢) وهو لقب المطران ، من العامية العربية « أبونا » ولا يزال يطلق على المطران الى اليوم فى الحبشة .
(٣) ل : فى لغة .
(٤) ل : وجليل .
(٥) ل : وهو مع ذلك .
(٦) ل : طلب اليه .
(٧) ل : هذا الرجل .
(٨) ل : يعترفون .
(٩) الأجيق وهو رئيس رهبان دير ليبانوس ورئيس رهبان الحبشة ويلى المطـــران القبطى وهو حبشى ويسمى بالحبشية « الاتشجى » .
(١٠) ل : وأحفلوا فى .
(١١) ل : المضروب المحتوم .

هناك عربى ، فلما استكملوا ما أرادوه من فضيحته ، وعلم الملك أنه قد أدرك ما يريده من حط مرتبته ، شاور الوزراء والكبراء ماذا يفعل به ، فقال كثير منهم : يقتل ، ورجح للملك أن يحبسه لحبسه فى جزيرة بحر النيل ، كما قدمناه وأخذوا فيه رأى البترك ، ورفعوا إليه بتلك الفواحش واستدعوا منه من يقوم مقام هذا الابون ، فهذا آخر ما نقل إلينا من حديث ذلك الأبون من رواية الشريف محمد بن موسى البخارى . ثم إنه كان فى بعض الأيام خروجنا من مدينة الملك للطيافة الى بعض منتزهاتها ، قاصدين الى محل كان يعتمره(١) هذا الأبون المذكور . وفيه شىء من كتبه مكتوبة بالقلم العربى ، فأحببنا الإطلاع على شىء منهما فوصلنا الى ذلك المحل ووجدناه محلا نفيساً رائقاً للعيون ، ومن أعجب مارآه الراءون وفيه جماعة من تلامذة ذلك الأبون ، فاجتمعنا بهم وخاطبناهم بما نريده ، فادركنا منهم التشوش والارتياب ، والتقلقل والاضطراب ، فسكنا روعتهم ، وأحسنا مخاطبتهم ، حتى اطمأنت نفوسهم ، وأطالوا معنا فى الحديث ، حتى أنا لم ننصرف من عندهم ، إلا وقد أعجبهم ما رأوه منا من الرفق ، ونهى المصاحبين لنا من أن يعبثوا بشىء من محاسن تلك البساتين التى معهم ، فتحدثوا بذلك بعد رجوعنا من عندهم لكبيرهم ، وكان غائباً ذلك اليوم عن ذلك المحل ، فأعجبه ما سمع ، ووصل لنا فى اليوم الثانى من يوم خروجنا وجاء الينا إلى محلنا ، وهو رجل عليه سيماء القراء ، وتنسك أهل العبادة ، وهو يتكلم باللسان العربى ، لانه من تلامذة الأبون المقدم ذكره ، فتيسرله خطابنا ولنا خطابه من غير واسطة ترجمان ، فوجدناه أحسن من فى تلك الديار ، واسمه خاطروس(٢) فما برح يسألنا عن شريعتنا ، وما أركانها ومهماتها ، فأجبنا عليه ، وذكرنا له أركان الإسلام الخمسة ، وصفة الشهادتين ، والصلاة ، وصفاتها وما يقدم لها من الطهور ، ثم الاذان الذى يدعى به اليها ليحضرها الناس ، ثم الإقامة بعد الحضور ثم التوجه بألفاظه ، فأعجبته تلك الالفاظ غاية العجب ثم أكثر السؤال عن الزكاة فى الأموال ومقدارها(٣) فأجبنا عليه فيها ، ثم قال من يأخذ هذه من أرباب الأموال ، فقلنا الإمام الأعظم قال فمن يأكلها ، فعرفناه مصاريفها كل مصرف باسمه وصفته ، فازداد عجباً بما شرعه

---

(١) ل : يعتمده .
(٢) يغلب على الظن أن هذا الاسم تحريف لاسم بطرس .
(٣) ل : ومقاديرها .

الله عز وجل من العناية بأحوال الضعفاء(١) الفقراء ، والمساكين ليشاركوا الأغنياء فى أموالهم ، ولا يستأثرون عليهم بمتاع الدنيا ، وقال هذا غاية الرفق ، وكمال المعروف ، ثم كذلك أعجبه ذكر السهم الذى يصرف فى سبيل الله من المجاهدين ، الذين يقاتلون(٢) ويجاهدون الخارجين عنه من الكافرين ، وما برح هذا الرجل يعاودنا ويتأسف على ما مضى من الايام التى لم يجتمع بنا فيها . ونحن كذلك أعجبنا منه ما رأيناه . ثم إنه قال : لولا أنى رجل كبير يظهر للناس خبرى ولا يتكتم عنهم أمرى ، لصحبتكم إلى بلادكم ، واستأمنت منكم على أن تتركونى على دينى . فقلنا كم مثلك من اليهود والنصارى يستأمنون من المسلمين . ويدخلون ديارنا بأمان وجوار ، فنهم من يبقى مع تسليم جزية معلومة عن رأسه ، ومنهم من يقيم الأيام اليسيرة ثم يرجع إلى أرضه ، ثم إنى سألته عن الإنجيل ، وهل يوجد عنده مكتوباً بالعربى ، فقال نعم هو عندى ثلاثة أسفار ، فطلبت منه عارية السفر الأول فجاء به إلينا وهو مكتوب فى عنوانه مبادىء الإنجيل ، فنظرت فيه قدر عشرة أيام ، وجميع أوائله مواعظ فقط لم أطلع على غيرها ، وقال إن الأحكام فى السفرين الأخيرين ، وكان بعد تمام تلك الايام ارتحالنا إلى هنالك . وكان هذا الرجل يخبرنا عن هذا(٣) الابون المتقدم ذكره ويروى تلك الامور المستنكرة ، ويهجن عليه بها ، وقد كان بلغ إلينا حبس الأبون إلى جانب الطريق ، قبل وصولنا إلى الملك — فتأكد معنا الظن الذى كنا نؤمله فى الملك من الدخول فى الإسلام ، لاسيما مع انضمام قضية أخرى إلى هذه — قضية الأبون — وهى أن هذا الملك المذكور لما مات أبوه وله أولاد كثيرة على أمهات متفرقة ، وليس لهذا الملك من أمه إلا أخ واحد ، فأوصى أبوه إليه وإلى وزرائه أنه إذا مات حبسوا جميع أولاده بالقيود فى حصن معروف ، ولا يتركوا من الحبس إلا هذا الاخ الذى هو شقيقه من أمه ، ليكون عضداً لاخيه ، ومظاهراً له فى أمره وملكه ، ففعلوا ذلك ، وحبسوا جميع أخوته فى ذلك الحصن ، وهم خمسة عشر رجلا وأجرى عليهم الملك النفقات الفائضة ، والإحسان التام من كل وجه ، وإنما الغرض رفع منازعتهم الملك ، فبقى هذا الاخ موازراً لاخيه فى أموره ، ويقوم بأمور جنده .

---

(١) ل : تحذفها .
(٢) ل : يقاتلون عن الدين
(٣) ل : أحوال .

وأحوال غزوه وملاقاة عدوه ، حتى أن الملك أدرك من أخيه ذلك نخوة عظيمة ، واستقلالا فى كثير من الأعمال ، ورفعت إلى الملك أخبار ، وهى أن أخاه يريد قتله والوثوب على سرير ملكه ، وهؤلاء الأبحرة معروفون بمتانة الكيد ، وأكيد الحكمة فى تدبير وجوه الحيل ، فما زال الملك بتدبير[1] وجه الحيلة على أخيه ، كيف يكون السبيل إلى الأخذ عليه ، والانتقام منه ، ولم يتيسر ذلك للملك إلا بعد مدة مديدة ، وزمان طويل ، وشرح حديثه لا يكفى فيه القايل ، فما برح فى ذلك حتى استمكن من أخيه فى جوف الليل وأمر به جماعة من أهل البأس والنجدة والهمة والشدة يخرجون به ليلا ؛ وقد كانت أمه قد سألت الملك أن يبقى عليه من القتل ، وأن يكتفى من ذلك بحبسه فأظهر لها الامتثال ، وأنه أمر به إلى جزيرة بحر النيل ، ولما بعث به فى جوف الليل ، لم يظهر خبره لأحـــد الناس ، ولا ظهر من وجوده فى أى محل من تلك السجون المعروفة ، فلم يشك الناس أنه قتله ، وكانت هذه القضية مع قضية الأبون السابقة موهمتين صدق ذلك الظن ، وأن الملك إنما بطش بهذين الرجلين ليستقل بذلك الغرض ، ويتمكن ، فلم يكن إلا كما قيل — فى كل خيال لم يحصل منه فائدة — رب صاف تحت الراعدة ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء .

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده ... وليس عليـــه أن يتم له الأمر

هذا وقد قدمنا أمر الحريق الذى وقع معنا ، وعظم موقعه ، وهول حادثه ، وحملنا ذلك على العناية والاحتراس[2] ، والمبالغة فى الاحتفاظ ، ثم أنا لم نشعر فى بعض الليالى إلا وقد اشتعلت النار فى جانب العشة التى نحن فيها ، مع هدوء العيون وغلبت النوم على حواس الحراس الموكلين بالحفظ ، فكنت أول من أدرك اشتعال هـذه النار قبل تمكنها فى جوانب العشة ، فصرخت بالناس فأدركوها قبل اشـتعالها وانتشارها[3] ، مع هدوء الريح فى تلك الليلة ، وسلمنا الله عز وجل من ذلك ونجانا بفضله علينا مما أرصدوه[4] من تلك المهالك ، فالحمد لله ولى الحمد ومستحقه ، حمداً يقوم بعظيم فضله ، وواجب حقه ، ولما رأينا هذه المخاوف والحوادث التى تنوب ، والكوارث التى هيجت الأحزان والكروب ، مع ما رأيناه أيضاً من مماطلة الملك

---

(١) ل : يدبر .
(٢) ل : فى الاحتراس .
(٣) ل : انتشارها .
(٤) ل : أرصدوه لنا .

بالمواعيد الكاذبة ، ضاق الصدر وحرج ، واضطرب الأمر ومرج ، وخشينا ألا نجد إلى الخروج من تلك الديار سبيلا ، لا سيما وقد وقعت مراسلة من الملك وبعض وزرائه لبعض جماعتنا من المعسكر المصاحبين يرغبونهم بالبقاء هنالك ، ومع ما رأيناه من تخبير عدة من الرسل الذين يصلون إلى الملك بعضهم من أهل أوسه ، وبعضهم من جهات سنار ، وبعضهم من جهة الأتراك ، حتى صاروا فى سلكهم ، واستعبدوهم كما يستعبدون من وقع فى ملكهم ، ومع أنا نفكر فى الحال ، وننظر فيه إلى ما يكون فى المآل ، فوجدنا خروجنا مع تقدير تيسره ، إنما هو من جانب الأتراك على جهة مسوع ، فنحن غير آمنين من مكرهم ، ولا واثقين بأمانهم ، لما هو الغالب من نكثهم وغدرهم ، فالتبست الأمور علينا ، كقطع الليل المظلم فلم نجد لنا ملاذاً ومعاذاً غير الالتجاء إلى الله عز وجل ، والتمسك بدرس القرآن العظيم الذى هو أعظم ما به نتوسل[1] ، فيسر الله لنا مع ذلك منامات مبشرات ، دالة على السلامة ، ومؤذنة بالنجاة من كل ندامة ، أذكر منها بعضها وهى : ما رأيت فى بعض الليالى من الوفود على إمامنا المتوكل على الله أيده الله تعالى فوصلت إلى ديوانه الذى يقعد فيه لقضاء حوائج الناس[2] فوجدته مملوءاً من العلماء ، العظماء كل منهم فارش سجادة يصلون ، وينتظرون نزول الإمام إليهم من أعلى الدار ، لصلاة الجمعة فقعدت مسنداً ظهرى[3] إلى جدار الديوان قعود الوافد ، فبينا أنا كذلك إذ وصل الإمام عليه السلام فقمت اليه ، وسلمت عليه ، وهو يشق الصفوف حتى تقدم الى محل صلاته ، فجعلت أطلب لى مكاناً أقعد فيه للصلاة ، فلم أر متسعاً إلا فى سجادة سيدنا القاضى العلامة ، وجيه الإسلام ، خير القضـــاة الأعلام ، عبد القادر بن على المحيرسى حفظه الله تعالى ، فقعدت معه عليها ، وقضينا الصلاة جماعة ، ثم خرجنا من تلك الدار على القاعدة المعروفة ، فرفع المسبح صوته وهو يقول :

هات الأحاديث تصريحا وتنبيهـــا ... لعلها من غليـل النفس تشفيهـا
إن الأمور التى فى النفس تخفيها ... لا تخشها إن ذكـر الله يكفيها

فخطر ببالى لما سمعت ذلك المسبح أنه يريد تبشيرى بانفراج ما أنا فيه من الحيرة ، بفضل الله وأمره ، والتوسـل اليه بجميل ذكره ، فقمت من منامى مسرعاً الى رقم

---

(١) ل : يتوسل .
(٢) ل : المسلمين .
(٣) ل : فقعدت ويضيف الشارح « مسندا ظهرى » .

هذين البيتين ، وقد غاب عنى من لفظهما شىء محل « لا تخشها إن » فى البيت الثانى ، فأصلحت هاتين اللفظتين فى اليقظة ، وأما البيت الأول ، وبقية الثانى فعلى صفته فى الرؤيا ، ثم رأيت رؤيا أخرى كذلك ، رأيت أن قائلا يملى علىّ بيتين من الشعر ، وهما هذان المذكوران :

وكن حازماً فى كل أمر تريده   فإن صواب الرأى ما كان أحزمه
وشـاور عليماً فى الأمور مجربا   حكيماً(١) إذا ما دبر الأمر أحكمه

ورؤيا أخرى أيضاً وهى : أنى رأيت أنى أتلو القرآن على سيدنا على بن سعيد الشريحى(٢) القارىء المشهور بمدينة صنعاء ، فوصلت إلى قوله تعالى : « إن الله مع الصابرين » . فقال لى : قف على هذه الآية ، فقلت له : تريد إلى تمام السورة ، فقال: فى هذا كفاية . وغيره(٣) لم أذكره ، والرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين(٤) ، ولشدة ما قاسيناه من الضجر ومهاجرة النوم ومحالفة السهر ، خطر بالبال ، وصف ذلك الحال ، بما ضمنته فى هاتين القصيدتين ، وإن لم يكن ذلك من بضاعتى ، غير أنه مع قصور حاله عن النظم المنتظم ، ينزل منزلة النثر الملتئم . وهما هاتان .

الأولى :

على كل سعى فى الصلاح ثواب   وكل اجتهاد فى الرشاد صواب
وليس على الإنسان إدراك غاية   ودون مداها للعيون(٥) حجاب
ولو علم الساعون غاية أمرهم   لما كان شخص بالشرور يصاب
فقل لأمير المؤمنين : لقد دعا   وحق له بعد الدعاء يجاب
ولكن دعا قوماً يظنون أنهم   رموا غرضاً فى دينهم فأصاب
تراءى لهم لمع فهم يحسبونه   شراباً فأضحى ذاك وهو سراب(٦)

(١) ل : حليما .
(٢) ل : الشرعى .
(٣) ل : وغير ذلك .
(٤) ل : وأربعين جزءا من النبوة .
(٥) ل : للغيوب .
(٦) رأينا الأجتزاء بهذه الأبيات من القصيدة الأولى اذ بقيتها تعريض بالأديان فى الحبشة صريح .

وهذه الثانية :

من لقلب ولطرف ما هجع   ولصب لم يزل حلف الوجع
ولمحـزون نأى عن داره   ومن الأحباب كيف المرتجع
كل يوم وله من همـه   ما أطار النوم عنه وفـزع(١)
وأشاب الرأس من أهـواله   وتحلى بالحـلى بعد الصلع
أنكرت عينى ما تألفـه   وتجافى الجنب طيب المضطجع
ولقد زاد فـؤادى وصبـا   ما رأت عينـاى من أهل البدع
صرت فى أرض قليل خيرها   وكثير الشر فيها يصطنع(٢)

انتهى

عدنا إلى حديث أيام إقامتنا ، وما كنا عليه فى خلالها من النجدة والصلابة ، وما ألقاه الله عز وجل فى قلوبهم من الجلالة والمهابة ، إظهاراً لهذا الدين على سائر الأديان ، وإكراماً لأهله بما أظهره لهم من عظيم السلطان ، وكم أعدّ من الأشياء التى يحاولون أن يدركوها منا فيظهر لهم عجزهم ، ويهون على ذلك عزهم ، ولايمكن أن يقال إنهم يتصاغرون إكراماً لنا ، فقد عرفنا من حالهم خلاف ذلك ، وإنما هممهم قاصرة ، فإن أحدهم قد يرى بالآخر منهم مايقتضى منه طلب النصرة له ، والدفع عنه ، فيحيد عنه جانباً ، ويتولى(٣) عنه هارباً ، ولا يلوى عليه ، ولايلتفت إليه ، ولا أن يقال أيضاً : إن ذلك لأجل قوة معنا ندفعهم بها ، فذلك مما لا يقال ، على معدود من صريح(٤) فلم يبق إلا أن ذلك من فضل الله علينا ، وتشريفه لديننا ، فلقد كان فى بعض الأيام ، واتفق أن امرأة من المسلمين استحوذ عليها الشيطان ، وزين لها الكفر على الإيمـان ، فارتدت وتنصرت ، ولها بنتان لرجل مسلم من أهل موع

(١) ل : ووزع .
(٢) وكذا رأينا الأجتزاء بهذه الأبيات من القصيدة الثانية اذ سائرها تعريض بالأيمان فى الحبشة .
(٣) ل : ويولى .
(٤) ل : صريح المحال .

تزوج تلك المرأة هنالك ، فأولدها هاتين البنتين ، ولها أيضاً خالة أخت هذه المرأة المرتدة ، فهربت بها خالتهما ، ووضعتهما فى بيت رجل من أصحابنا الذى هو نازل فيه ، فجاءت أمهما هذه التى ارتدت عن دين الإسلام بجماعة من رجال النصارى نحو اثنى عشر رجلا من كبارهم وأشرافهم ، فلما انتهوا إلى باب ذلك البيت الذى فيه ذلك الرجل من أصحابنا ، خرج إليهم وحده منفرداً يريد أن يخاطبهم بما يليق من الكلام ، وتحسن محاورتهم به فى ذلك المقام إلا أنه استصحب سيفه فى يده ، فما هو إلا أن رأوه خارجاً إليهم ، فولوا ظهورهم هاربين ، يشتدون عدواً شديداً وخطوا مديداً ، ولما علمنا بذلك ، اعتقدنا أن مثل هذا لا يسكتون عنه ، فأمرنا بإدخال هاتين الإبنتين فى البيت الذى نحن فيه ، وانتظرنا ما يجىء إلينا فى شأنهما من الملك أو من بعض وزرائه ، فلم يذكر لنا من ذلك شىء ، وقد شاع خبر تلك القضية فى مجالسهم ، وتحدثوا بها عند رؤسائهم ، وأمرنا بمصير هاتين الإبنتين إلى أبيهما إلى بندر مسوع . على يدى الأمير عبد الوهاب رسول(١) الأتراك ، صاحب سواكن المقدم ذكره ، والحمد لله الذى أعزنا بدين الإسلام المفضل على سائر الأديان ، وشرفنا بشرفه السديد الأركان ، الباذخ البنيان ؛ وهو المسئول أن يختم لنا رضوانه ، ويشملنا بعظيم فضله وإحسانه ، بحق محمد وآل محمد ، وبهذا يتم ما أردنا ذكره(٢) فى حضرة الملك ، وبعد تمام تسعة شهور ألقى الله عز وجل فى قلبه الإذن لنا على تلك الشريطة التى قدمنا ذكرها . وأمر معنا ثلاثة رجال من كبار أهل حضرته يسيرون بنا فى بلاده للقيام بما نحتاجه من الضيافة وغيرها ، وجعل على كل رجل منهم مسافة معلومة ، وبين ما يصير إلينا فى كل يوم من الضيافة(٣) ، ثم توجهنا من حضرة الملك فى آخر شهر القعدة الحرام من عام ثمان وخمسين وألف سنة ، ولما انفصلنا من المدينة قدر عشر مراحل ، انقضت مسافة أحد الثلاثة المأمورين بمصاحبتنا ، وقام بنا فيها ذلك الرجل أحسن قيام ، وفعل ما أمر به(٤) الملك مع زيادة عليه فى الإكرام ، ثم اقتضت النوبة إلى الثانى منهم ، فبقى معنا تلك الليلة التى هى أول نوبته ، ثم فارقنا من اليوم الثانى ، وتقدم علينا يقبض الضيافة من الناس ، ويأخذها لنفسه ، وتركنا وراء ظهره ، ولم نجد من يقوم بتضييفنا ، ولا ما نرجع إليه لنفقتنا ،

(١) ل : رسول باشه .
(٢) ل : ذكره من أيام اقامتنا .
(٣) ل : الضيافة المحتومة .
(٤) ل : أمره .

ومعنا نفوس كثيرة من الرقيق والخدامين ، قد صار عددنا يزيد على مائة نفر فلم نجد طريقاً غير الاعتماد على الله عز وجل ، وعلى تناول ما يقوم بنا من النفقة فى كل قرية مما نجده فيها ، وكنا على ذلك كلما وصلنا قرية طلبنا أهلها ، وعرفناهم بمقدار ما أمر به الملك من الضيافة ، فإن سلموها منهم أخذناها ، واكتفينا بها عن غيرها وأن تمردوا عنها سلطنا عليهم من كان معنا فيأخذون كفايتهم ، ولا يفوتهم منها شىء ، وكنا قد أعددنا معنا من سلاسل الحديد ، التى يربط بها أهل الجرائم حتى يسلموا(١) ، ما نحتاجه وقد كان وقع فى بعض الرقيق معنا ، ألم الجدرى فاحتجنا إلى إعداد من يحملهم على سرر رفقاً بهم ، وحفظاً لهم عن إضاعتهم فى أيدى الكفار ، وكنا لا نقوم من القرية التى ندخلها إلا وقد قربوا منهم تسعة أنفار لحمل هؤلاء المرضى من قرية إلى القرية الأخرى(٢) لا نعذرهم عن ذلك ، ثم إنا نربط رئيس القرية بالحديد ، ونسيره تحت الحفظ معنا، ولا نطلقه من أيدى العسكر إلا وقد وصلنا القرية الأخرى، ووصلت جميع أثقالنا كاملة سالمة ، وهلم جرا ، ولو لم نفعل ذلك لهلكنا جوعاً ، ولذهبنا بأيدى الكفار قطعا .

إذا لم يكن إلا الأسنة مركب   فلا رأى للمضطر إلا ركوبها

ولقد حاول أهل قرية(٣) الامتناع بالهرب ، فأمرنا نساءهم بالحمل ، وأجبرناهن على ذلك ، فلما عرفوا صدق العزيمة رجعوا إلينا مغلوبين مقهورين ، وليس مثل هذا يخطر على بال أحد من الناس ، أنه يتم عليهم مثل ذلك لمثلنا ، على أنهم لو اجتمعوا على هلاكنا ، لم يشعر الملك بشىء من علم ذلك لبعده عن الاطلاع وقعود وزرائه عن مسالك(٤) الأبصار والأسماع ، فلا شك ولا ريب أن تمام هذه الأمور لنا وظهورنا عليهم ليس إلا بشرف الإسلام ، وسر هذا الإمام عليه وعلى جده(٥) أفضل الصلاة والسلام ، واتصل سيرنا على هذه الصفة قدر خمس وعشرين مرحلة ، وبعد تمامها انقضت مسافة ذلك المأمور المتمرد ، ثم أفضت النوبة إلى الثالث منهم فتلقانا

(١) ل : تحذف حتى يسلموا .
(٢) ل : قرية .
(٣) ل : قرية منهم .
(٤) ل : وزرائه منه على .
(٥) ل : جده وعلى آبائه .

بأحسن ما يجب[١] ، وفعل بما أمر به الملك وزيادة عليه ، وصير إلينا من الزاد ما يبلغنا إلى بندر مسوع لأجل المفازة المتوسطة بين « مسوع » و « دباروى »[٢] ، وهى قدر عشر مراحل للقوافل ، وأقمنا فى بلد « دباروى » قدر اثنى عشر يوماً ، نصلح ما نحتاج إليه من أمورنا ، ونستزيد ما لا بد منه من الزيادة على زادنا، وكانت القاعدة المتعامل بها أن القوافل ما تسير من دباروى ، إلا مع صحبة من السحرت المتصلين بهذه المفازة ، وكان من الامتحان أن وقع عزل الأمير صاحب دباروى مع وقوفنا فيها فضاق بنا الحال ، وألجأنا تضايق الأمور إلى سرعة الارتحال ، فتوجهنا منه بغير صحب ولا دليل ، إلا الله عز وجل فهو حسبنا ونعم الوكيل ، وهون علينا تلك الشدة ، ما بلغ إلينا أن مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله — أيده الله تعالى — قد أرسل رسولا قاصداً[٣] باشه الأتراك صاحب « سواكن » يأخذ لنا منه الأمان ، وأمره أن يقف فى بندر مسوع حتى نصل اليه فأسرعنا بالسير لما بلغ الينا أن جماعة من الأشرار من بدو النصارى يجتمعون فى جانب من[٤] الطريق يريدون اعتراضنا. وقد طمعوا فينا لما بلغهم انفرادنا فأرسلنا رسولا من أهل الخبرة بالطريق الى نائب الباشه فى بندر مسوع وكتبنا اليه نخبره بما بلغ الينا من خبر هؤلاء البدو ، وما يريدونه من التعدى والعزم على الإقدام الينا وبسط الأيدى ، وبعد أن نفذنا ذلك الرسول لم ننتظر عود الجواب ، فى ذلك المحل لأنا رأينا البقاء فيه مخاطرة ، فلم نجد بدأ من السفر والتوكل على الله عز وجل ، فلما بلغنا ذلك المحل الذى بلغنا أنهم راصدون فيه ، رأينا القوم قد اجتمعوا حول مصرام لهم كبير جمعاً كثيراً ، وقد كنا أرسلنا اليهم رجلا من المصاحبين لنا من أهل الحبشة يخادعهم فى القول ، ويلين لهم العبارة ، ويطمعهم بشىء من المال ، ويكلمهم أن يصحبنا منهم جماعة من كبارهم الى المحل الذى نريد النزول فيه تلك الليلة ، وهو قريب من هذا المصرام الذى هم فيه يعلمون أنا لانفوتهم بالتجاوز إليه ، ومرادنا بذلك اطماعهم[٥] ، ومطاولة الحديث معهم حتى يرجع لنا الجواب من أمير مسوع ، فأثر فيهم ذلك القول ونقض عليهم ما كانوا أبرموه وأطفأ من لهبهم ما كانوا أضرموه ، لولا أنه وقع من بعض

---

(١) ل : يضيف وأكرمنا بأفضل مانحب .

(٢) وهى بالحبشة «دباروا» .

(٣) ل : تضيف الى .

(٤) ل : تحذفها .

(٥) ل : أطماعهم بالقول .

أصحابنا ماهيجهم ، وأثار حفائظهم ، فرجعوا على ما كانوا عزموا عليه من العدوان وأصروا على اتباع ما زينه لهم الشيطان فتركونا حتى تولينا عنهم قليلا ، ثم صرخ صارخهم واحتملوا علينا من جهتى اليمين والشمال ، ونظرنا الى ما حولنا من الجبال ، فإذا هى تسيل بالرجال ، وكان غاية همنا حفظ الرقيق خشية أن يسبوا من هو على ديننا ، فلما اتصل بنا أوائلهم يتذامرون ويتعادون كأنهم السباع الضارية فرمونا بالحراب من أيديهم ودفعوها[١] دفعاً تعدى حتى تعداهم[٢] فأصابوا منا رجلا ووقع فى فرس من خيلنا حربتان ، فرمت عليهم البنادق وبأيديهم أتراس متسعة تستر جميع أبدانهم ، فهم يظنون أنها تدفع عنهم رمى البنـــدق ، فوقعت رمية فى أحدهم ، فخرقت ترسه وأصابته فى شقه الأيسر حتى خرقته ، فألقته على جانبه وأثرت فيه تأثيراً هائلا أرهبهم وأرعبهم ، فانكسرت سورتهم ، وانفلتت شوكتهم ومالوا عنا حتى لذنا بأكمة عالية ، وجمعنا فيها أثقالنا ، ثم أمرنا العسكر أن يقفوا بالبنادق على أطراف تلك الأكمة ، وهم قد أحاطوا بنا من كل جانب ، ولكن الله عز وجل ملأ قلوبهم هيبة ، ورجع أمرهم بالإخفاق والخيبة ، فلم يجسروا على الإقدام علينا ، والوصول إلينا ، وإلا فإنهم قد بلغوا نحو خمسمائة رجل أو يزيدون على ذلك سوى من جاء إليهم من آخر ذلك اليوم ، فإنهم بلغوا جيشاً عظيماً ، وعدداً كثيراً ، فأرسلنا إليهم ذلك الرجل الذى كنا أرسلناه إليهم المرة الأولى ، وقلنا له أعرف ما يريدونه فإن يكن المـــال فقل عنا ما شئت ، وأبذل لهم ما رأيت ، وإن يكن النفوس فأخبرهم عنا أن الموت ليس بيسير ، وأن الهالك منهم بمعونة الله العدد الكثير ، فاتفق الرأى بيننا وبينهم أن يأخذوا علينا عهداً ونأخذه على كبارهم كذلك بالأمان وعدم العدوان ثم نرجع معهم إلى مصرامهم[٣] وقد كنا جاوزناه[٤] بنحو ميل ثم يقع الإصلاح هنالك على تسليم[٥] شىء من المـال ، فرجعنا معهم إلى بلدهم ، ونحن مع ذلك غير واثقين[٦] فإن الله عز وجل يقول فى أمثالهم : إنهم لا أيمان لهم وبتنا معهم تلك الليلة ، وجاء إلينا كبارهم يخوضون معنا ، حتى أصبح الله بالصباح ، ونحن نحاورهم ونجاهد مشقة السهر مع خوف الغدر منهم ، فإنهم مع ذلك قد أحاطوا بنا

---

(١) ل : ودفعوا بها .

(٢) ل : حد تعديهم .

(٣) ل : بلدهم .

(٤) ل : جاوزناها .

(٥) ل : تسليمه .

(٦) ل : واثقين بعهدهم .

من جميع الجوانب ، وأشعلوا النار من جميع الجهات ، فلما كان نهار اليوم المسفر عن تلك الليلة رجع جواب أمير مسوع وخرجت العسكر نحو مائة نفر فيها خمسون بندقاً . ولما وصل الرسول بالجواب ، وأخبر أن العسكر من الأتراك قد خرجوا فى أثره — بدد الله شملهم ، وفرق جمعهم ، ودفع عنا كيدهم ومكرهم ، وكان ذلك من الفرج بعد الشدة ، والحمد لله الذى خلصنا من كيدهم ، وأخرجنا من بينهم(١) سالمين، ونجانا من القوم الظالمين، ثم إنا لما انفصلنا عنهم وهم مجتمعون ذلك الاجتماع، ومطبقون نواحى تلك البقاع ، أرسل الله عليهم جيشاً من أعدائهم ، وأحاطت بهم النقمة من بين أيديهم ، ومن ورائهم ، فاقتتلوا قتلا شديداً ثم كانت الدائرة على(٢) الباغين علينا ، والغلبة لعدوهم عليهم ، انتهبوا أموالهم ، وقتلوا رجالهم ، وسبوا نساءهم حتى لقد رأيناهن فى سوق بندر مسوع يبيعونهن فيه عقب وصولنا إليه ، وشاعت هذه القضية هنالك ، وتحدث الناس من أهل الإسلام فى مسوع أن هذه القضية من كرامات إمامنا عليه السلام(٣) ، ولا شك فى ذلك ، ولا ريب ، فإن حقه على الله أعظم من ذلك ، وكم دفع الله عنا ببركته من المهاوى والمهالك ، ولما اتصلنا بجماعة العسكر الواصلين من مسوع ، ووجدنا رسول الإمام الذى قدمنا ذكره قد خرج مع أولئك العسكر ، فسر بوصولنا إليه(٤) واستبشر ، وحمد الله على ذلك فأكثر ، وعلمنا أن الله سبحانه وتعالى قد نجانا من شر الكافرين ، وكيد الكائدين وأوجد الله سبحانه وتعالى فى قلوبنا أنساً وطمأنينة ، وأبدلها عما كانت فيه من القلق وقاراً وسكينة ، وارتحلنا نحن وجماعة العسكر جميعاً فى ذلك الحال متوجهين إلى بندر مسوع ، فسرنا بقية يومنا ذلك وفى اليوم الثانى دخلنا بندر مسوع وقت انتصاف النهار ، فتلقانا النائب فيه بأحسن الكرامة ، وأسنى ما نحب من البشاشة التى هى دليل رعاية العهد، وعنوان السلامة، وأقمنا هنالك ثمانية أيام نهيء ما نحتاج إليه فى سفر البحر ، وبعد انقضاء تلك الأيام ركبنا فى ثلاث سفن متوجهين إلى ساحل « اللحية » فوصلنا إلى جزيرة «دهلك» وتحيرنا فيه قدر أربعة أيام ، لعدم استواء الريح ثم بعد ذلك تيسرت الريح المناسبة ، فتوجهت الجلاب قاطعة عرض البحر

(١) ل : يحذف عبارة « وأخرجنا من بينهم » .
(٢) ل : على هؤلاء .
(٣) ل : صلوات الله عليه .
(٤) ل : تحذفها .

من جهة المغرب إلى جهة المشرق ، وعزم ربان الجلبة على السفر ليلا ونهاراً ، مع الاقتداء بالنجوم التى يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، فسافرنا ذلك اليوم والليلة التى تليه واليوم الثانى إلى وقت العصر ، ثم طلع علينا من أمامنا من جهة اللحية سحاب متراكم ، وثار مع ذلك الريح العاصف المهيج موج البحر المتلاطم ، فما زال يقرب منا فإذا البحر قد اضطربت أمواجه، وماجت جوانبه وأثباجه(١) ، وأمطرت السماء بما شاء الله أن تمطر ، فاجتمع هول المطر مع هول ذلك الريح الذى صرنا معه إلى أعظم الخطر ، وأهل الجلبة يعالجون أعمالها، ويتفقدون أحوالها، وهم ينتظرون انفراج تلك الشدة فى أقرب مدة ، فطال عليهم ذلك حتى ضعفت قواهم وتفاقم الأمر ، وعظم الحادث فصارت(٢) الألسنة بالدعاء إلى الله عز وجل ، والتوسل بكل ذى حق عليه أن يفرج عنا ذلك الهول الاهول ، ودام علينا ذلك المطر تلك الليلة مع اليوم التالى لها مع الليلة التى تليه ، فكان دوامه ليلتين ويوماً ، وكان معنا فى هذه السفينة زورق صغير ، فرسب فى البحر لما امتلأ ماء ، فجذب السفينة لما كان مربوطاً إليها ، وقد كان ربان السفينة وثب منها إلى هذا الزورق ولا ندرى بمراده من ذلك ، فلما رسب الزورق فى البحر تعلق الربان بجانب السفينة وصرخ بصوته إلى أصحابه يستنقذونه ، فلم يجبه أحد لما نزل بهم من الأهوال(٣) ، وأصابهم من ذلك الحادث الذى سلبهم الحركة ، وأخرسهم عن القول ، فوثب إلى ذلك الربان رجل من أصحابنا، فتناوله إليه وأطلعه ، وقد أشرفت السفينة على الغرق بسبب جذب ذلك الزورق ، فأخذ ذلك الرجل من أصحابنا سيفه ، وقطع حبل الزورق فانفصل عن السفينة ، وذهب فى البحر ، ثم إن الربان أمر بإلقاء الأحمال من الأثقال(٤) التى فى السفينة ، فألقوا فى البحر ما وقعت أيديهم فيه حتى حصل التخفيف . ثم إنا فزعنا مع ذلك إلى الدعاء والتوسل إلى العلى الأعلى ، وقد بلغ بنا الحال إلى ما لا يعلمه إلا ذو الجـلال والإكرام(٥) ، فما برحنا نسأل الله عز وجل بحق محمد نبيه المرسل ، وبحق إمامنا المتوكل على الله وسائر أهل بيت رسول الله حتى انفرجت عنا الشدة وقد أيقنا بحلول البأس ، وضاقت النفوس حتى كادت تخلد الى اليأس ، وأما السفينتان الآخريان ، فإن

(١) ل : وأثابجه .
(٢) ل : وجأرت .
(٣) ل : الهول
(٤) ل : الأثقال من الاحمال .
(٥) ل : العزة والجلال .

الموج رمى بهما الى جزائر فى البحر ، وما يزال يجول بهما يميناً وشمالا ، حتى لقد تأخرتا عن خروجنا[١] لا ندرى ما هما فيه ، والظاهر من الحال أن الريح كانت عندنا أشد ، لانا كنا قد تقدمناهما بمسافة كثيرة ، وهما سفينتان صغيرتان ، لا شك أنهما لا تقويان على ما نزل بنا من ذلك ، وإنما هما فى حكم هذا الزورق الذى غرق فى البحر ، ولما فرج الله هذه الشدة وسافرنا بعد ذلك فى البحر يومين كاملين ، ودخلنا مرسى اللحية حامدين الله عز وجل ، معترفين أنه تبارك وتعالى قد شملنا بفضله فأجزل، وسبل علينا نعمه فأكمل ، فالحمد لله حمداً يصعد أوله ولا ينفد آخره[٢] ، ويتواصل ويتجدد حتى يرضى ربنا كما هو أهله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ولما وصلنا بندر اللحية أسرعنا برفع الخبر الى مولانا أمير المؤمنين أطال الله له الأيام والسنين ، فكان ذلك لديه أعظم مسرة ، وأشرف مبرة ، ورجع الينا جوابه مشتملا على مقبول الدعوات ، ناطقاً بما أجنه ضميره من التحنن الذى نجانا الله به من عظائم الآفات ، وتوجهنا الى حضرته الشريفة تجذبنا أيدى الأشواق ، وتمد اليه ركائبنا الأعناق ، مؤثرين زيارته على الأهل والأولاد ، مسارعين الى التملى بكريم غرته التى خلقها[٣] الله عز وجل قبلة للعباد ، وأسعدها باليمن والإسعاد[٤] ، من عام تسع وخمسين وألف سنة على تمام أحد وعشرين[٥] شهراً ، منذ فارقناه حتى وافيناه .

فألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قر عينا بالإياب المسافر

فاستبشر بنا أيده الله تعالى كما استبشرنا به ، وأكرمنا بأفضل ما يكرم به الغائب عند إيابه ، وتلقانا بما لا مزيد عليه من مكارم الأخلاق ، وبما هو أهل من الشمائل المنطلقة بالفضائل على الإطلاق ، وأحسن أيده الله تعالى فى كرامة أولئك العسكر المصاحبين أتم الإحسان ، وصنع إليهم من صنائع الفضل أحسن ما يريده الإنسان ، وينطق به اللسان ، وما عند الله خير للأبرار ، وثوابه تبارك وتعالى على مثله[٦]

(١) ل : خروجنا أربعة أيام .   (٢) ن : ينفذ .
(٣) ل : جعلها .
(٤) ل : يضيف فكان وصولنا اليه أيده الله تعالى رابع شهر ربيع الأول من
(٥) ل : أحد وعشر : والصواب أحد وعشرين .
(٦) ل : مثل ذلك .

جنات تجرى من تحتها الأنهار. وها هنا ينتهى ما أردناه وينقضى ما أوردناه والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وبفضله تدرك الإرادات ونصلى على نبيه وعلى آله أفضل الصلوات ، ونسلم عليهم أجمعين من يومنا هذا الى يوم الدين ، ونستغفر الله العظيم من فرطات اللسان ، وهفوات الجنان ، لنا ولوالدينا ولجميع اخواننا من المسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فرغ من تحريره يوم الاثنين المبارك ، ثامن عشر يوماً خلت من شهر القعدة الحرام سنة ثلاث وثمانين وألف سنة[١] .

(١) ل : فرغ من تحريره ضحوة يوم الاثنين المبارك عاشر شهر شعبان الكريم الذى هو من شهور عام ستين وألف سنة لمحروس كوكبان حرسه الله تعالى ....

فهرست الموضوعات

فهرست الأعلام

الأسماء التى بها علامة * ترجم لها .

فهرست الأماكن

فهرست الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢١٢١ لسنة ١٩٧٢